روايات عالمية

محاكم التفتيش

مكتبة معروف

روايات عالمية

محاكم التفتيش

رفاييل سباتيني

مكتبة معروف

جميع حقوق الطبع محفوظة
للمركز العربى للنشر والتوزيع
معروف إخوان

مكتبة معروف
الإسكندرية ـ ٤٨١٠٨٢٨ / ٤٨٤٦٤١٠ فاكس ـ ٤٨٦٠٠٨٩ القاهرة ـ ٠٢٢ ٤٠٣٧٧٩٢
ص . ب ٣٧٠ الإسكندرية E- mail : maarouf 2004 @ hotmail . com

المقدمة

بدأت محاكم التفتيش فى أسبانيا عام ١٤٧٨ حيث أقامها الملك فرديناند الخامس وزوجته ايزابلا وغرضها كان التجسس على اليهود والمسلمين الذين أعلنوا أعتناقهم للمسيحية ، خوفا من أرتدادهم ولكنها تطورت الى جهاز للرقابة على الفكر ، ولجأت الى الأحكام بالموت وقد أثارت هذه المحاكم كلا من هولندا ، وبلجيكا ضد الحكم الأسبانى حتى ألغيت فيها عام ١٨٢٠ ..

إعداد

حمدى السعداوى

** جرفاس كروسبى

شاب مغامر حصل على رتبه (سير) الرفيعة وحبيب مرجريت .

** الليدى مرجريت تريفانيان ابنه روجر تريفانيان .

** روجر تريفانيان

والد مرجريت أحد رجال البلاط الانجليزى وقدأعتزل عنه ليعيش وسط كتبه ومجلداته .

** الدون بدرو

شريف أسبانى ، مغرم بمرجريت حيث أختطفها إلى أسبانيا .

** القس لويس أحد رجال ديوان التفتيش .

** أوليفر تريسيليان

صديق جرفاس وحاصل على رتبه (سير) أيضا .

** الملك فيليب الثانى ملك أسبانيا .

** الكردينال كيروجا

أسقف طليطله وخال الدون بدرو دى مندوسا .

* * *

كان "روجر تريفانيان "- وهو من كبار الأشراف - يميل الى حياة العزلة .. فيقضى ساعات يومه كلها فى القراءة والاطلاع ، بعيداً كل البعد عن مشاغل الحياة ، وقد نتج هذا الميل الجارف الى العزلة.. من مجموعة من التجارب - الغير سارة - والتى واجهها روجر تريفانيان فى حياته .. فقد كان صديقاً حميماً للأميرال "توماس سيمور" الذى أدت به الدسائس فى البلاط الأنجليزى الى آلة الأعدام .. وكان "روجر" نفسه معرضا لهذا المصير بحكم صداقته بتوماس سيمور ..

كان روجر تريفانيان فى الحادية والعشرين حين رأى صديقه يُعدم أمامه .. فكان نتيجه هذا المشهد الدامى . أن قرر الشاب الأبتعاد تماما عن حياة البلاط . وهو الميدان المناسب دائما للدسائس والمؤامرات .

وهكذا .. رحل تريفانيان الى أملاكه الواسعة فى الريف ليقيم بها إقامة دائمة .. يرعى شئون أسرته بنفسه ، وكان آباؤه قد عهدوا بها الى الخدم والوكلاء ..

ثم تزوج بعد ذلك من أحدى بنات الأسر العريقه .. وكانت غاية فى الحسن والجمال .. وهو ما كان رصيدها الوحيد على ما يبدو.. إذ كانت سيئه الخلق .. فظة الطباع .. ومالبثت أن لاكت الألسنة سمعتها

.. وتناقلت فضائحها ومباذلها ..

ولعل الأقدار أرادت به خيرا .. إذ أصيبت بعد ولادتها الأولى بحمى النفاس ، فماتت بعد الولادة بأسبوعين .. تاركة له طفلة صغيرة سماها "مرجريت" .. والغريب أنه لم يهتم بتربيتها .. فتركها تنشأ كما تشاء .. ولكن الطفلة الصغيره عرفت كيف تختار لأنها كانت الشخص الوحيد الذى فهم أباها على حقيقته .. بل فى الواقع الشخص الوحيد الذى يحبه لأنه لم يكن يلقى حباً من الناس الذين أبتعد عنهم .. ونفر منهم .

.. فقد ورثت مرجريت عن أمها الشكل الجميل الجذاب .. وعن والدها سمو النفس ونبالة الأحساس ..والعناد ..،ولعل شعورها بالتميز ـ شكلا وخلقا ـ جعلها تنفر من فكرة الزواج .. فقد بلغت الخامسة والعشرين من عمرها.. ولم تتزوج بعد .. رغم أنها كانت ـ ولاتزال ـ محط أهتمام الشباب ومعقد آمالهم .. كل منهم يطمع فى أن تتخذه زوجا .. أو حتى صديقا .. ولكنها كانت المنيعة العنيدة !!!

.. ومن طباع "مرجريت"الغريبة أيضا هو حبها لمظهر "الأسترجال" .. فكانت تتشبه فى حركاتها وسكناتها بالشبان والرجال .. فتقضى أغلب وقتها فى ركوب الخيل . والخروج الى أماكن الصيد ..، وترتدى لباسهم وأزيائهم.. ومع ذلك فأن هذا لم ينقص شيئا من أنوثتها .. بل على العكس.. أكسبتها هذه النزعة جمالا معنويا آخر بجانب جمالها الجسدى ، وخلع عليها وقارا ومهابة فاتنه ، وجعل منها غادة رائعة .. قوية الأراده .. عزيزة النفس..

كانت "مرجريت" إذن لاتشجع أحدا من الشبان على التودد اليها .. عدا شاباً واحداً وسيماً يدعى "جرفاس كروسبى" وهو سليل أسرة عريقة تقيم بجوار قصرها ويدعى عميدها "جون كليجرو" وهو رجل

أعزب لا ولد له ، فأحب جرفاس حبا أبويا فعامله كأبن له ، يهتم به غاية الأهتمام ويسعى الى تعليمه وتهذيبه جيداً ليحتل مكانه مرموقة فى بلاده ـ انجلترا ـ مجرى أحداث هذه القصة .

وكان "كليجرو" هو الذى أصطحب (جرفاس) لأول مرة الى قصر تريفانيان فى أحد الأيام ، فلم تلبث مرجريت أن أستلطفته ، وأنست اليه وراحت تعامله معاملة صديق من الشبان لصديقه ، فشجعه هذا على التردد على القصر فى أغلب الأحيان .. فقد كانا متماثلين فى العمر والأذواق ، فتمكنت بينهما صداقة حميمة سرعان ماتحولت إلى حب جارف من طرف الشاب وحده ، أما مرجريت فلم تكن تنظر إليه أكثر من نظرتها الى صديق.. أو أخ ، وهو ما أحزن جرفاس كثيرا ..

وكان كليجرو يأمل أن يتخصص ابنه بالتبنى فى دراسة القانون على أمل أن يجد له مستقبلاً فى عالم السياسة ، ولكن جرفاس كانت تستهويه حياة المغامرات والأهوال وهكذا لم يبد أقتناعا بجدوى دراسته للقانون ، وفلح ـ بعد جهد ـ فى إقناع كليجرو بالموافقه على التحاقه بالبحرية ..

وهكذا أخذ السير "جون كليجرو" الشاب الى لندن ، حيث تمكن بواسطه نفوذه ومعارفه من إقناع السير (فرانسيس دريك) البحار الشهير من إلحاق جرفاس بالعمل معه على إحدى سفنه ، ووافق البحار العظيم بعد أن رأى قوام الشاب وحسن ملامحه وما ينطق به وجهه من أمارات العزم والتحدى..

وعلى الفور .. أوضح السير (فرنسيس دريك) للبحار الجديد (جرفاس) أن هناك أسطولاً بقيادته على وشك الإبحار لآداء مهمة معينه غاية فى الحساسية بحيث أن الحكومة قد تضطر الى التبرأ منها إذا ما أنكشفت طبيعتها السرية .. وبدون أن يسأل جرفاس عن

هذه المهمة، وافق فوراً على عرض رئيسه الجديد (فرنسيس دريك) .. وهكذا .. وبعد أربعة أيام من اللقاء الأول بينهما، كانت خمس وعشرين سفينة بقيادة دريك تجرى فى عرض البحر ..

فى الوقت الذى جرت فيه أحداث هذه القصة .. كانت أسبانيا هى عدوة أنجلترا الأولى .. فقد كان ملكها (فيليب الثانى) لايفتأ يدبر المؤامرات والمكائد ضد انجلترا .. يحركه فى هذا البابا الذى كان يعتبر ملكه انجلترا كافرة ، مطرودة من رحمة الله وجناته ..

وكان الأنجليز يسمعون دائما بالقبض على بحارتهم فى الشواطئ الأسبانية وتقديمهم الى محاكم التفتيش الرهيبة التى عرفت بها أسبانيا فى ذلك الوقت ، فتحكم تلك المحاكم على البعض منهم بالسجن ، والتعذيب .. أو الموت حرقا !..

.. ولذلك كانت مهمة السير (فرنسيس دريك) السرية !

فقد سافر هذا البحار العظيم بتأييد ضمنى من الملكة لتأديب الأسبان فى معاقلهم بحيث لاتكون حكومة انجلترا مسئوله رسمياً أمام الحكومة الأسبانية لو حدث من الأمور مايستوجب تقديم الأحتجاجات والأعتراضات، حينئذ .. يمكن للملكة أن تتبرأ من السير فرنسيس دريك وأعماله ، خاصة وأن أسبانيا كانت متفوقه عسكريا عن انجلترا .. ولاسبيل الى الأنتقام إلا بمثل هذه الوسائل الخفية .

اتجهت السفن إذن الى الشواطئ الأسبانية ، وبعد عشرة أشهر من إبحارها رست فى ميناء (فيجو) شمال أسبانيا حيث نزل بحارة السير فردريك ، وجرفاس من ضمنهم ، وأعملوا فى المحلات والحقول أعمال السلب والنهب ، ثم اتجهوا بعد ذلك الى سانتياجو حيث فعلوا فيها مثل ما فعلوا فى فيجو ، إذ لم يلق رجال السير فردريك أية مقاومة تذكر ..

.. واتجهت السفن بعد ذلك الى ميناء (سان دومينجو) حيث قابلتها حاميتها الأسبانية بمقاومة عنيفة ، فقتل الأسبان قائد الجماعة التى عهد اليها بالنزول فى هذا الميناء .. وكان جرفاس من ضمن هذه الجماعة ، فلم يكن منه بعد مقتل قائده الا أن تقدم بكل جرأة وحماسة ، وبدافع من نفسه ودون أى سلطة لديه فاحتل مكان القائد القتيل وسار بالجماعة بكل شجاعة حتى أقتحم المدينة فكان للأنجليز بفضله النصر المبين .

فلما سمع السير (دريك) بما كان من بسالة الشاب جرفاس وإقدامه ، أمر بتثبيته فى القيادة التى عرف كيف ينتهز الفرصة لتوليها ..

ويتحول الأسطول بعد ذلك الى (قرطاجنه) حيث لقى مقاومة أشد من السابقة ولكنه تمكن من إخضاعها، كما راح جرفاس يظهر بسالته النادرة وبراعته فى قيادة رجاله والهجوم بهم على الحامية الأسبانية وهو ما أنتهى سريعا بتسليم المدينة ..

.. وأخيرا .. رأى السير (دريك) أن ما فعله يعتبر كافيا لإقناع الملك الأسبانى فيليب ، وديوان التفتيش أن الأنجليز لا ينامون على الظلم ولا يصبرون على الأذى ، فأعتزم العودة لبلاده ..

ووصل البطل إلى ميناء بليموث الأنجليزى وقد أثبت للعالم كله أن أعظم دولة فى العالم ـ وهى أسبانيا ـ معرضة للهزيمه .. كما جعل (الحرب الرسمية) أمراً لا مفر منه بعد أن تحداها على هذه الصورة السافرة .

* * *

عاد (جرفاس كروسبى) إلى موطنه بعد أن قضى ما يقرب من العام فى هذه المهمة الناجحة ، وبعد أن أنضجته المخاطر وأفادته

التجارب ، وغيرت من شأنه المعارك والملاحم .. ذهب على أثر عودته الى قصر تريفانيان وهو مقتنع الأن بأن غزو قلب الحسناء (مرجريت) أمرا لا يذكر أمام غزو مدائن الأسبان ..

ولكن سرعان ما خاب رجاء الشاب ..

فقد أستمعت مرجريت ـ ومعها أبيها ـ الى تفاصيل المهمة وجرفاس يرويها بحماس.. ولما أنتهى من روايته .. لم يبد عليها أى علامة تشير إلى إعجابها.. بالبطل الصغير .. بينما قال الأب .. تريفانيان .

ـ الواقع أن ما قمتم به أقرب ما يكون الى أعمال القرصنة ..

وكم أحس جرفاس بالأحباط وهو يسمع مرجريت توافق أبيها قائله :

ـ نعم .. أن دريك ماهو الا قرصان أثيم ..

.. ولم يكن أمام الشاب البائس سوى الأستئذان فى الأنصراف .. فخرج من القصر مطأطأ الرأس .. وكان عند دخوله شامخ الرأس .. منتصب الجسم !! أما مرجريت فقد أحست بعد أنصرافه بأنها ربما أهانته .. فلامت نفسها على ذلك .. وتمنت أن يعود لزيارتها .. فقد كانت تميل اليه ـ ولانقول تحبه ـ وكم سيؤلمها لو قرر مقاطعتها.. ويكف عن زيارة القصر ..

ولكن جرفاس عاد بعد يومين .. فقابلته مرجريت ضاحكة وهى تقول : ـ

ـ أهلا وسهلا بالقرصان العظيم ..

وضحك جرفاس فى هذه المرة .. فقد كانت كلماتها تحمل الأعتذار .. ومحاولة أرضاؤه .

تعددت بعد ذلك لقاءات الأثنين .. حيث فاتح جرفاس مرجريت فى

إحدى هذه اللقاءات برغبته فى الزواج منها ، ولكن الفتاه سخرت من رغبته هذه . وقالت له أنها تنظر إليه كصديق حميم .. ولا شئ أكثر من ذلك ..

ولكن الشاب لم ييأس .. بل كان فى كل مرة يلح عليها .. ويحاول بكل ما أوتى من صدق وإخلاص أن يعرب لها عن حبه.. وكأن مرجريت كانت تحاول اغاظته .. فتلين له .. وتتجاوب مع مشاعره الدافئه تارة ، وتارة إخرى تصده وتصطنع الجفاء .. والشاب المسكين حائر لايدرى حقيقة شعورها نحوه ..

وبعد أن قضى جرفاس شهراً فى موطنه .. جاءه كتاب من السير فرنسيس دريك يستدعيه فيه الى ميناء بليموث .. إذ كانت الحرب وشيكه بين انجلترا واسبانيا .. وكان من المعروف أن الأسبان يبنون أسطولاً ضخماً أستعدادا لغزو انجلترا ..

وذهب جرفاس لتوديع مرجريت وأبيها .. فوجد الأب ـ على عادته ـ فى المكتبة بين كتبه ومجلداته .. وحاول جرفاس أن يخرج الشيخ من استغراقه هذا أخذ يحدثه عن الخطر المحدق بأنجلترا ، ولكن الشيخ لم يجزع.. ولم يبد أى تأثر !

ثم ذهب جرفاس إلى حديقة القصر حيث كانت (مرجريت) بصحبة أثنين من أقاربها وهما الشاب الجرئ (ليونل تريسليان) والفتى (جودو لفين) وكانا لايختلفان كثيرا عن شبان العصر الذين يهتمون بالأناقة والرشاقه وحسن الهندام ، ولايفكرون فى غير الزينة والتجمل !!..

قال جرفاس وهو يمسك بيد مرجريت : ـ

ـ لقد جئت لأودعك .. فقد أستدعانى الأميرال دريك لأن أسبانيا على وشك الإغارة على انجلترا ..

فقال جودولفين وهو يحاول السخرية من جرفاس : ـ

ـ وهل أنضممت ياسيدى الى الأميرال .. لم أكن أعرف بذلك ..

ثم أخذ يضحك وتريسليان يشاركه.. أما مرجريت ، فلم تشاركهما الضحك وهذا ما شجع جرفاس على الجواب قائلا :

ـ نعم .. لقد أنضممت الى رجال الأميرال .. فإذا كانت لديكما أيها الشابان المدللان أية رسائل تريدان إيصالها اليه .. فأنا على أستعداد لذلك .

قال ذلك وعلى وجهه علامات التحدى .. والرغبة فى الدخول فى مشاجرة معهما .. فما كان من الشابان الا أن أنسحبا بهدوء !..

وتحولت مرجريت إلى جرفاس قائلة : ـ

ـ أصحيح ما قلته ياجرفاس .. أهناك حرب حقا ؟

ـ نعم .. هذا ما فهمته من رسالة الأميرال ..

.. فألقت الفتاه إحدى يديها على ذراعه وقالت بنغمة مخلصة أحسها الشاب فخفق قلبه :

ـ فى حراسة الله تذهب ياجرفاس .. وبالسلامة تعود ..

.. فتناول الشاب يدها التى كانت ملقاة على ذراعه. فلثمها بخشوع واحترام وغمغم قائلا : ـ

ـ أن كلماتك هذه ستكون لى درعاً واقياً من الأخطار ..

.. وكأنما خجل من هذا التصريح .. فأنصرف مسرعا لا يلوى على شئ ..

* * *

لم تكن الحرب متوقعة بالسرعة التى تخيلها جرفاس ..

فلم تكن لأنجلترا أدنى رغبة فى الحرب ، لأنها كانت ترى أسبانيا أقوى منها .. فهى تمتلك الجيوش القوية المسلحة تسليحا جيدا .. بالإضافة إلى وفرة مواردها المالية ومصدرها هى المستعمرات الممتدة الأطراف والتى تملكها ..

وفى نفس الوقت كان الملك فيليب ملك أسبانيا لايرى سببا حقيقيا يدعوه الى غزو انجلترا عدا الحاح البابا سكتس الخامس الذى أعلن أن ملكة أنجلترا كافرة جاحدة وقد عرض الملك على البابا أن يقوم بشن الحرب على انجلترا بشرط أن يقوم قداسته بتمويل نفقات هذه الحرب .. ولكن البابا رفض وتملكته ثوره الغضب حين سمع بطلب الملك .

وهكذا .. كان الطرفان لايريدان الحرب .. وكل له سببه - وأن كان هذا لم يمنع كلاهما من الأستعداد لها .. فقامت أسبانيا بإعداد اسطولها القوى (الأرمادا) كما قامت انجلترا باجراء أستعدادات الحرب المعروفه .. من بناء السفن ، وتخزين المؤونة وجمع الذخيرة وصنع البارود .. وكان هذا هو سبب استدعاء الشاب جرفاس ..

ولكن الأميرال العظيم فرنسيس دريك وهو قرصان بالطبع والسليقه .. كان يرى أن الحرب وشيكه جدا .. وأنها واقعة لامحالة .. لذا سافر الى لندن وقابل الملكة وعرض عليها رأيه فى هذا الشأن ألا وهو الاغارة على أسبانيا حتى تحتفظ انجلترا بعنصرى المبادأه والمباغته وهما عنصران أساسيان لكسب أى حرب .. ولكن الملكة رفضت ذلك .. وأثرت أن يتم وضع حد لجميع هذه المناوشات بين البلدين عن طريق الوساطات والمفاوضات بدلاً من إراقة الدماء ، وإزهاق الأرواح فى حرب قد تخسرها لتفوق العدو فيها ..

ولما رأى دريك هذا الجنوح من الملكة الى السلم قال لجلالتها :

ـ أنت أذن تريدين السلام يا مولاتى .. حسنا .. دعينى أفعل شيئا لضمانه ..

فأستفسرته ماذا يعنى بهذا فكان جوابه أنه من مصلحة الملكة أن تظهر قوتها حتى تحصل على أفضل الشروط فى حالة عقد صلح بين البلدين وعلى ذلك فأنه سيبحر الى المياه الأسبانيه ـ دون أية مسئوليه على الحكومة ـ ليعرف العالم أن انجلترا ليست ضعيفه ، ولم تقبل الصلح مع أسبانيا لأنها تخاف الحرب ..

.. كان دريك رجلاً قويا ساحر الشخصية ، يكفى أن يرسل بريق عينيه النفاذتين الرهيبتين لكى يُسلم برأيه ويُمتثل لأرادته ..

.. ولم يسع الملكة سوى الموافقه على طلبه .. وهى كارهة ..

وهكذا سافر السير دريك على متن سفينته (البونا فنتام) وفى رفقته أسطول مؤلف من ثلاثين سفينة شراعية إذ لم يكن البخار قد أكتشف بعد .

.. وبعد ستة أيام من بداية سفره وصل الى مياه (كاليه) حيث كان حوض الميناء مزدحما بالسفن الأسبانية التى كانت تستعد ولاشك لمهاجمة انجلترا .. فعزم الأميرال الداهية على مباغتتها والاستيلاء عليها وهى قابعة فى الميناء..

وكان هذا العمل الجرئ من جانب (دريك) هو أخر ما تتوقعه أسبانيا .. فلم تلبث أن أطلقت عليه النيران من المدفعية الساحلية الأسبانية .. ولكن بغير جدوى .. لأنه كان قد عرف كيف يلتف حول السفن الرابضة ، وأستولى عليها وجردها من كل ما يمكن أن ينفعه .. وبعد ذلك أحرقها كاملة .. مسبباً خسارة فادحة لأسبانيا تتمثل فى تكاليف بناءها وإعدادها ..

وأستأنف دريك الرحيل بعد ذلك وهو مطمئن أنه لن يمكن لأسبانيا

بعد هذا الحادث أن تخرج بالأرمادا ـ الأساطيل الأسبانيه ـ لغزو انجلترا إلا بعد مرور عام على الأقل ..

وقد صح ما توقعه (دريك) إذ أن الأرمادا الرهيبة لم تخرج من أسبانيا الا فى العام التالى لهذا الحادث الجليل، فأبحرت مائه وثلاثين سفينة من شواطئ نهر التاجاس ، تتقدمها السفينة (سان مرتان) سفينه القياده وعلى ظهرها الأميرال الأسبانى (مدينا مسدونيا)..

كانت هذه السفن تحمل ثلاثين ألف رجل .. وقد توجهت لغزو انجلترا فى حرب مقدسة لنصرة الدين ضد الملكة الكافرة ، حتى لقد أعترف كل رجل منهم بذنوبه أمام كاهنه .. طالبا التوبة والأستغفار، وزود كل منهم بصليب صغير يضعه حول عنقه ، كما طرزت على العلم الأسبانى صورة السيدة مريم العذراء وابنها المسيح عليهما السلام .

.. وأقتربت هذه السفن الرهيبة من بحر المانش حيث كان (دريك) يرتقب وصولها وقد أعد خطة محكمة لتدميرها وإلحاق الهزيمة الساحقة بها ..، فقد تسلل خفية من ميناء (بليموث) فأرسل خمسين مركبا من مراكبه وهى خافقه الأشرعة والساريات زاحفة صوب سفن أسبانيا العظيمه ، فلم يلبث الأسبان أن أصيبوا بالدهشه ازاء رد الفعل السريع للجانب الأنجليزى .. ولكن (دريك) لم يترك لهم الفرصة لتدارك الموقف المفاجئ .. فأمر سفنه التى نجحت فى أختراق مؤخرة الأساطيل الأسبانية بإطلاق نيران مدافعها ..

وهكذا أتت هذه المباغته الداهمة أثرها .. إذ دمرت أعدادا كبيرة من هذه السفن بينما فرت القلة الباقية هاربة .. والمراكب الأنجليزية تطاردها فى مياه المانش ، وكأنها الذئاب تطارد قطعانا من الماشية .

.. أما الدوق (مدينا مسيدونا) فقد أصابته الدهشة والحيرة .. وهو

يشاهد تلك الألاعيب الأنجليزية العجيبة ..

أما (دون بدرو فالدز) وهو واحد من أعظم رجال البحر الأسبان ، وأقدر قواد الأرمادا تقريبا .. فلم يجد مفراً من التسليم وهو يرى الخراب والتدمير يلحقان بسفنه القوية ..

وفى اليوم الثالث للقتال .. أستراح الفريقان .. فلم يقاتلا .. وإنما قضاه الأسبان فى لم شعثهم والأستعداد لمعاودة القتال ..

وفى اليوم الرابع .. أستأنفت العمليات الحربية .. وكانت نتيجتها كلها فى صالح أنجلترا وهذا ماحدث أيضا فى اليوم التالى .. ولكن الدوق (مدينا مسيدونيا) آثر فى النهاية أن يتجه بسفنه الباقية الى الشواطئ الأسبانية لألتقاط الأنفاس وطلب العون ولإمدادت .. ثم أستئناف القتال بعد ذلك .. وهكذا أخذت السفن الأسبانية الجريحة تسرع فى الهرب .. حتى أختفت عن أعين دريك ورجاله ..

ـ لكن دريك ـ وقد أثمله النصر المبين ـ كان يريد أن يغتنم تلك الفرصة السانحة فيقضى على الأسطول الأسبانى بكامله .. ويكون ذلك ـ فى رأيه ـ بإحراقها جميعا وهى رابضه فى الشواطئ الأسبانية .. ليتحقق بذلك النصر التام .. وبطبيعة الأمر .. فأن خطة كهذه كانت تستلزم أن يكون الهجوم الأنجليزى ليلاً .. وهو ما يتطلب إرسال أحد البحارة الشجعان لأستكشاف مواقع السفن الأسبانية ..، ووقع أختيار (دريك) على جرفاس إذ كان يرى فيه البسالة والهمة والذكاء وهو كل ماتتطلبه تلك المهمة الأنتحارية ..

استمع جرفاس ـ الذى قبل المهمة ـ الى تفاصيل خطة الأميرال دريك حتى إذا ماوعاها تماما وأدرك ماهو مطلوب منه .. طلب من دريك أن يأذن له بتنفيذها فوراً .. وهكذا .. وما أن حل المساء .. حتى كان جرفاس على ظهر مركب شراعى صغير.. يحمله معه شاب

صغير السن يمسك فى يده قلما ويجلس الى منضده صغيره ، وأخر من جنود المدفعية يقف بجانب مدفعه الصغير .. مستعدا لأطلاقه فى أية لحظة ..

أقترب المركب الصغير من الشواطئ الأسبانيه .. وازداد فى أقترابه حتى لمحه الدوق (مدينا سيدونيا) الذى كان يتمشى مع مجموعة من ضباطه على سطح السفينه (سان مارتان).. فقال الدوق وهو يشير الى المركب الشراعى الصغير .

ـ لابد أنها قادمة برسالة من الأنجليز ..

فقال أحد الضباط : ـ

ـ كلا ياسيدى .. فهى لاترفع علم السلام الذى تحمله كل سفينه تحمل رسالة من العدو ..

وفى هذه اللحظة .. كانت سفينه جرفاس قد أقتربت كثيرا من السفن الأسبانية .. ثم سارت بسرعة مذهلة حتى أستدارت حول سفينه الدوق وراحت تطلق نيران مدفعها الوحيد عليها ..

وأثناء ذلك كان جرفاس يملى ملاحظاته بكل تفصيل ودقة للشاب الجالس الى المنضدة .. وكانت تدور حول مواقع السفن الأسبانية .. وطريقة توزيعها بالنسبة لسفينه الدوق ، وتقدير المسافة بين الشاطئ وهذه السفن ..

وقد أنتهى جرفاس من هذا العمل بسرعة مدهشة ، دون أن يتعرض له أحد !!..

ولكن دهشة الأسبان مالبثت أن تلاشت أمام هذا العمل العجيب .. فأمر الدوق بأطلاق النيران على سفينه جرفاس .. ولكن بعد فوات الأوان !

إذ سرعان ماهرب جرفاس بنفس السرعة التى جاء بها .. وطاشت طلقات المدفعية الأسبانية إذ جاوزت السفينه الصغيره مرماها !!!

.. كان دريك واقفا فوق سطح السفينه (ريفنج) ـ أى الأنتقام ـ منتظرا جرفاس حين جاء هذا فبادره قائلا :ـ

ـ ما هذا يا فتى !؟.. وكيف نجوت !؟..

فدفع اليه جرفاس بالأوراق التى حوت التفاصيل والمعلومات المطلوبه ، فنظر دريك اليها مبهوتا .. وراح يصيح به قائلا :ـ

ـ يا اله العرش! أحساب وتقدير وتدوين أيضا !؟ وفى هذا الزمن الوجيز .. أنت معجزه بشريه أيها الشاب الشجاع ..

وفى نفس الليلة .. خرجت ثمان سفن مطلية بالقطران تتقدمها سفينه القائد ـ وكان جرفاس ـ متجهة الى مواقع السفن الأسبانية ، وما كادت السفن السود تدنو من سفن الأعداء حتى أشعل الرجال فيها النيران .. ثم تسللوا منها الى سفينة القياده .. وتركوا السفن المشتعلة يدفعها التيار المتقاذف صوب سفن الأسبان !!..

ساد الهرج والهلع فى السفن الأسبانية التى طالتها النيران .. فأخذ البحارة يقذفون بأنفسهم فى الماء .. بينما كان البعض منهم يحاول أطفاء الجحيم المستعر ولكن عبثا ..

وفى نفس الوقت كان دريك ورجاله يمطرون السفن الأسبانية بوابل من النيران .. ولم تمضى لحظات حتى كانت الأرمادا حطاماً !!!

* * *

فى بهو القصر الملكى بـ (هوايتهول) كان دريك ورجاله الشجعان فى أنتظار وصول الملكة .. وكانوا قد حضروا بناء على دعوة منها ..

ودخلت الملكة .. ذات الوجهه النحيل والأنف الطويل وقد صبغت وجهها باللون الأحمر فى شئ من الأسراف ، وغطت نحرها وجيدها بعقود من اللؤلؤ تحاول بها أن تخفى ذبول جمال بشرتها ..

وكان ثوبها مرصعا بالجواهر وقد أمسكت بمروحة محلاة بالدر ، تهزها برفق فى يدها وقد أصطف عن يمينها ويسارها سرب من الوصيفات الحسناوات وعلى يسار الملكة .. وقف اللورد (هوارد) القائد الأعلى للبحرية يقص عليها تفاصيل ماجرى فى بحر المانش بين أنجلترا وأساطيل الأسبان .. حتى وصل الى ذكر ايفاد السفن الثمانيه المدهونة بالقطران لإحراق الأرمادا .. فقالت الملكة :

ـ أنك تغفل التفاصيل ياعزيزى .. فلتقل لنا ما اسم ذلك الفتى الذى أنطلق يستكشف مواقع سفن العدو ..

.. وسمع جرفاس الذى كان حاضرا أسمه يذكر فى تلك اللحظه فأرتجف وخفق قلبه .. ثم سرعان ما أصطبغ وجهه حياء عندما شاهد الحاضرين ينظرون نحوه ويبتسمون له ..

عندئذ طارت خواطره إلى مرجريت ، وتمنى لو كانت حاضرة

لتشهد هذا المجد الذى يحيط به الأن ..

كان جرفاس كروسبى واقفا مشرئب العنق ، مستوى القد فى ثوب من المخمل زاده جمالا وبهاء ، فلما مثل بين يدى الملكة نظرت إليه نظرة إعجاب فجثا عند قدميها ليقبل يدها .. فقالت له : ـ

ـ لقد كان عملا رائعا ياولدى ، وهو يدل على شجاعتك الفائقة ..

ثم شعر جرفاس بظهر سيف يلقى على كتفه ، ثم سمع الملكة تأمره بالوقوف وكانت تلك التحية التى أختصته بها قد رفعته الى درجة (سير) وهى من مراتب الشرف والفخار .. خصوصا لشاب فى مثل سنه ..

* * *

كان أول ما فعله جرفاس بعد مقابلته للملكة وانعامها عليه برتبه (سير) أن هرع الى قصر تريفانيان ليقص على محبوبته مرجريت قصة ذلك المجد العظيم الذى ناله .. وكم كانت دهشة مرجريت حين سمعت الخادم يقول : ـ

ـ لقد حضر "السير" جرفاس كروسبى يا مولاتى ..

وعلى هذه الصورة ، وبهذا اللقب الجديد تقدم جرفاس وقد أرتدى أحسن ثيابه .. رافع الرأس ، متهاديا فى مشيته .

وتبادل الأثنان النظرات فى صمت ..ثم أنحنى جرفاس وتناول يدها ولثمها وقال :

ـ لم يمضى على وصولى أكثر من ساعة واحدة ..

ثم شرع يحدثها عن مقابلته لجلالتة الملكة .. كما قص عليها تفاصيل مغامرته الجريئه التى أنتهت بدمار الأرمادا .. وبحصوله شخصيا على رتبه "سير" الرفيعة .. كانت مرجريت تستمع إلى

جرفاس دون أن تنبس بكلمة .. فلما انتهى من حديثه قالت ببرود :

-

- أن أبى سيفرح بلقائك .. هيا نذهب اليه فى مكتبه ..

وسار الاثنان جنبا الى جنب، وفى الطريق لمقابلة الشيخ المعتزل .. قال جرفاس : -

- مرجريت .. ألم يحن الوقت للموافقة على زواجنا .؟

- ليس الأن يا جرفاس .. ثم أننى لا أريد الزواج .. وحتى أطمئنك .. فأننى أعدك بأننى لن أتزوج غيرك .. هذا إذا ما أستقرت نيتى على الزواج..

وأمام هذه الإجابة الغامضة .. نظر جرفاس اليها وهو فى شك .. فلمح بريق التحدى يشع من عينيها ، فخطر له أن يجازف وليكن من الأمر مايكون ، فتناولها بين ذراعيه وراح يقبلها والغريب أنها أستسلمت لقبلاته المتتاليه .. فلم تبد أعتراضا .. أو حتى غضبت !!

ثم أنطلقا ليزعجا الشيخ الفيلسوف فى عزلته .

* * *

فتح الدون بدرو دى مندوسا الملقب بالكونت ماركوس عينيه وتطلع ببصره الى السماء المحتجبه خلف السحب الكثيفه .. وكان الوقت فجراً والظلام لا يزال يعم الكون بثوبه الأسود الحالك ..

ثم بدأت حواسه فى التنبه ، وأخذ يشعر بالوجود من حوله .. أنه الأن طريح الشاطئ ، جسمه متجمد تقريبا من شدة البرد ، ضعيف القوى ، متخاذل الساقين ولكنه لا يدرى كيف حدث له ذلك ؟ وأين هو الأن ؟ وكيف ساقته الأقدار الى ذلك المكان ؟ وبجهد شديد تحامل على ساقيه ووقف .. ولكنه أحس بالدوار الشديدمن فرط ضعفه فرقد

تذكر الدون بدور كيف خرج من بلاده .. أسبانيا ليحارب الأنجليز ويتصيد سفنهم فى البحر كما خرج مئات الالاف من رجال أسبانيا البواسل لحماية شريعة الله والتنكيل بأنجلترا الكافرة .. ولكن .. كان ماحدث .. وأنتصرت انجلترا الكافرة ـ بمعونة الشيطان ـ على أسبانيا .. واستطاعت أن تحطم الأرمادا .. أسطول أسبانيا القاهر ..

أما عن سفينته "الكونسيون" فقد كانت ضمن السفن الأسبانيه التى نجت من التدمير .. ولكنها نجت منه كى تواجه مصير آخر لا يقل أثرا عنه .. إذ تحطمت السفينه بالقرب من الشاطئ الأنجليزى بفعل أصطدامها بصخرة كبيرة أخفاها ظلام الليل عن أعين البحارة وبصر قائد الدفة ..

لقد هلك جميع من كانوا على ظهر السفينه ، عداه هو .. فقد حملته موجه كبيره وقذفت به الى الشاطئ ..

يا للسخريه .!!

لقد جاء ليحطم انجلترا الكافرة .. وهاهو جاثيا الأن على شاطئها ورمالها .. مكدود .. منهوك القوى .. لاحول له ولاقوة !!

.. وكانت الشمس فى تلك اللحظة قد أشرقت وراحت تبدد سحب الظلام الثقيلة فتحامل (الدون بدرو) على نفسه ، ووقف ثم أخذ ينفض عن ثوبه ما أصابه من بلل البحر ..

كان طويل القد، جميل القوام ، متين البناء لايتجاوز الثلاثين من العمر ورغم هول ما تعرض له .. فمازال جمال وجهه ، ومهابة هيئته أمرا ملحوظا لكل عين .. قد تراه !!

وكانت ثيابه وحدها كافيه للدلالة على جنسيته .. فقد كان مرتديا ثوبا أسودا طويلا ينبئ عن مكانته كنبيل أسبانى أصيل ، يتدلى على جانبه جراب لسيف جميل زينت الجواهر قبضته ..

سار (الدون بدرو) مستطلعا المكان من حوله .. وما أن خطا بضع خطوات حتى أرتاع وتراجع مذعورا .. إذ كانت جثه أحد ضباطه ملقاه فوق الرمال .. وعلى بعد قليل منها كانت جثث كثيرة منتشره .. وهى جثث البحارة الذين لقوا حتفهم جميعا ..

أبتعد (دون بدرو) عن هذا المشهد المهيب ولكنه توقف فجأه وقد تذكر أنه رأى فى منطقة خاصرة الضابط الميت خنجرا بديعا مرهف النصل ، فحفزته الغريزة الى أخذ السلاح .. وعاد أدراجه إلى الجثة وأنحنى عليها وانتزع السلاح منها .. ولم يقف عند هذا الحد من الأحتياط ضد "المستقبل المجهول" .. فأسرع الى جثث البحارة يفتشها .. باحثا عن النقود .. ورغم شعوره بالنفور من هذا العمل .. الا أنه كان لايدرى أى مصير سيلقاه .. وربما أحتاج الى السلاح والنقود ، لذا راح يجمع نقود البحارة ويخبئها فى ثيابه ..

.. أخذ (دون بدرو) يسير حتى قادته قدماه الى أرض معشبة يخترقها نهر صغير .. فأقبل على الماء يشرب .. ثم راح يغتسل ويزيل ما صنعته حوادث الليلة الماضيه بجسمه ووجهه .. وسرعان ما ارتد كما كان دائما .. شابا وسيم .. رائع الهيئه .

.. انتعشت نفسه قليلا .. وفارقه تشاؤمه فأستأنف المسير حتى رأى طريقا مطروقا حفت جانبيه الأشجار .. فذهب اليه وأخذ يأكل من بعض الثمار البريه ليسد رمقه .. وقد أرهف أذنيه مخافة أن يفاجئه أى أنسان ..

وفجأه .. سمع حفيفا بين الأشجار !

ووثب كلب كبير من كلاب الصيد نحوه .. كاشرا عن أنيابه وهو ينبح نباحاً عاليا متواصلا .. ولكن (دون بدرو) كان سريع الحركة .. فأستل سيفه وأستعد لطعن الحيوان الكبير به ، ولكنه سمع صوتا

عذبا ينادى : ـ

ـ بروتس .. بروتس ..

وسمع الكلب أسمه .. فتراجع على الفور ..

وبرزت سيدة بروتس ولم تكن سوى "مرجريت تريفانيان" !..!!

نظرت مرجريت إلى الشاب الواقف .. ممسكا سيفه فى يده .. فقالت : ـ

ـ هل نويت أن تقتل كلبى .. ياسيدى ؟..

فأجاب (دون بدرو) باللغة الأنجليزيه التى يجيدها تماما :ـ

ـ سيدتى .. أن نهاية حياتى على يد كلب يعطينى حق الدفاع عن النفس ..

دهشت مرجريت لإجابة الشاب التى تحمل روحا فكاهيه فقالت وهى تحملق البصر فيه :

ـ من أين أنت ياسيدى ؟..

فهز دون بدرو كتفيه وقال : آه .. من أين أنا ؟..

وابتسم ابتسامه حزينه ثم أستطرد :

ـ أجابة هذا السؤال تحتاج إلى قصة طويلة ياسيدتى ..

.. ثم أقترب منها ـ وبروتس يزمجر ـ وقال :

ـ أنا لست أكثر من حطام سفينه غارقة .. قذف به البحر على الساحل من سفينه أسبانيه حطمتها صخرة أنجليزيه عتيده !!

تجهم وجه مرجريت .. ثم قالت فى لهجة الأشمئزاز ..

ـ أنت أسبانى أذن ؟..

ـ نعم .. أسبانى يستحق الرثاء .. أما أسمى فهو الدون بدرو دى

مندوسا أولونا الكونت ماركوس .. وأنا من هذه الساعة أسيرك .

.. وجثا أمامها ومد اليها مقبض السيف الذى كان لايزال ممسكا به ، فتراجعت مرجريت خطوتين من فرط دهشتها وقالت : ـ

ـ أسيرى !؟.. ماذا تعنى !؟

.. اسمحى لى ياسيدتى أن أقول أننى لم أكن جبانا أبدا .. ولكننى الان فى بلادكم وأمامى أمرين لا ثالث لهما .. أما أن ألقى بنفسى فى البحر .. أى أنتحر .. وأما أسلم نفسى لأول انجليزى أقابله .. وقد حدث أن كنت أنت أول من أقابله .

ثم عاد يمد اليها سيفه وهو ممسك به بكلتا يديه .

أرتبكت مرجريت .. وأجابت قائلة : ـ

ـ ولكننى لست رجلا ياسيدى ..

فقال الدون بدرو : ربما كان هذا من حسن حظى ..

بدا على مرجريت التردد، وحارت فى كيفيه التصرف أمام هذا العرض الغريب وقالت :

ـ ولكنى لا أعرف كيف أتخذك أسيراً !؟

ـ بقبولك سيفى ياسيدتى ..

ـ وكيف أمسك بك ؟

فابتسم دون بدرو وقال :

ـ تسألينى كيف ؟ سيدتى .. من ذا الذى يفكر فى الحرية إذ كان أسيرا لديك .. ها أنا أسلم نفسى ومن حقك الأن أن تقدرى فديتى كما تشائين .. وسأظل أسيرك حتى تجئ هذه الفدية من بلادى ..

وبعد تردد .. وافقت مرجريت على هذه الفكره الغريبة ، فكرة أن

تتخذ أسيراً من الأسبان .. أعدى أعداء بنى قومها الأنجليز !

وقالت : ليكن ما تريد ياسيدى .. ستكون أسيرى فأعطنى كلمة شرف بأنك لن تحاول الهرب .. أما بالنسبة لأسلحتك فقد سمحت لك بالاحتفاظ بها .

فأحنى دون بدرو رأسه وهو لايزال جاثيا .. والسيف فى يده وراح يقسم لها بأنه لن يهرب حتى ولو أتيحت له الفرصة ، ثم نهض فرد السيف إلى غمده قائلا :

ـ أتسمحين لى ياسيدتى أن أسأل عن اسمك ؟..

فأبتسمت ومازال بها أثر من الأضطراب لغرابة الموضوع كله وقالت :

ـ اللادى مرجريت تريفانيان .. والآن .. هيا بنا فأنى أراك بحاجة إلى إصلاح شأنك .

.. ثم سارت وكلبها بروتس يتوبث أمامها ، وأنطلق الدون بدرو فى أثرها وهو يشكر الله على نجاته التى تحققت له على مثل هذه الصورة .

* * *

وماكادا ـ اللادى مرجريت وآسيرها ـ يسيران لحظة حتى سمعا صوت رجل ينبعث من فوق صخرة عالية، وكان يغنى فتطلعت مرجريت الى مصدره وقد وقفت عن المسير ولاح ظل أبتسامه على شفتيها ، فلم يدرك الدون بدرو سببها حين لمحها، ولكنه لم يلبث أن عرفه إذ سرعان ماظهر المغنى للعيان ورأى الدون بدرو أمامه شابا فى نضارة العمر ومرح الشباب ، لم يكد يلمح مرجريت حتى برقت عيناه الضاحكتان ببريق السرور وأقبل يهبط المنحدر نحوها ، فإذا ما أقترب منها ، توقف .. وفى عينيه سؤال حائر .. ترى من هذا الشاب الذى يرافقها ؟

وتعمدت مرجريت الغموض .. فقالت وهى تشير الى الدون بدرو :

ـ جرفاس. هذا هو الدون بدرو دى مندوسا أولونا الكونت ماركوس

لم يكد جرفاس يسمع هذا الأسم .. حتى جحظت عيناه من فرط الدهشة وتقارب حاجباه وراح يقول :

ـ أسبانى .!!..

خرجت الكلمة منه بنفس اللهجة التى يمكن أن يقول بها: شيطان !

.. أبتسم الدون بدرو ابتسامه مصطنعة .. ابتسامه الحزن والأعياء وقال بأنجليزية صحيحة :

ـ نعم .. أسبانى غريق بلله الماء ياسيدى ..

ولكن السير جرفاس لم يلتفت إليه مطلقا ، وإنما أستقرت عيناه على وجه مرجريت وهما طافحتان بالأسئلة :

وسأل : وكيف أتى هذا الأسبانى الى هنا ؟.

فتولى الدون بدرو الجواب وقال :

ـ لقد كان البحر الذى قذف بى رحيماً حانياً إذ ألقى بى عند قدميها ياسيدى .

.. فى« تلك اللحظة .. شعر جرفاس نحو الدون بدرو بكراهية شديدة ، فالأسبانى مهذب .. يستعمل الكلمات الرقيقه ، وكل الخوف أن يؤثر أسلوبه هذا فى محبوبته مرجريت ..

.. قال جرفاس : حسنا .. مادمت أسيراً فلنبدأ أولا بتجريدك من سلاحك.. هيا أيها الأسبانى .. سلم أسلحتك ..

ولكن الليدى مرجريت تدخلت فى هذه اللحظة ، وكانت قد ظلت صامتة طوال الوقت ، فالتفتت إلى جرفاس قائلة :

ـ ليس هذا من شأنك ياجرفاس .

فقال جرفاس : ماهذا الذى تقولين ؟ هيا يا صاح وسلم سلاحك !

فأبتسم الدون بدرو برفق وقال :

ـ لقد تأخرت نصف ساعه ياسيدى .. فأنا أسير السيدة ولست أسيرك ولن أذعن إلا لأوامرها ..

وجم جرفاس من فرط الدهشة ثم ضحك وصاح ساخرا :

ـ من ذا الذى سمع من قبل عن رجل يقع أسيراً فى يد أمرأه !؟

فقال دون بدرو بهدوء : هاقد سمعت ، ورأيت الآن ياسيدى ..

ونظرت مرجريت الى جرفاس غاضبة ، ثم تحولت الى الأسير وقالت :

- هلم يادون بدرو .

.. شعر جرفاس بإهانه بالغة إزاء معاملة مرجريت الخشنه له ، فلم يستطع النطق بكلمة واحدة !

وتقدمت مرجريت يتبعها الدون بدرو طائعا ممتثلا لأمر سيدته ..

.. أطرق جرفاس برأسه وقد شعر بأن هذه الحادثة قد حطمت كل آماله ، وجعلته يشك فى حبها له .. كان يعتقد فى قرارة نفسه أنها تبادله الحب ، وما معاملتها الجافه له سوى شئ من التدلل والتمنع المرغوب ، ولكنها الأن حطمت فؤاده ، وأستهزأت بمشاعره رغم أنه على يقين بأن هذا الأسبانى اللعين لم يستسلم لها إلا لغرض فى نفسه .. ولكنه لن يسمح بهذا ، أن مرجريت هى محبوبته .. وهى تخصه وحده .. ولن يسمح لهذا الأسبانى الخبيث بأن يسخر منها .

* * *

كان الدوق بدرو شاب مهذب حلو الحديث ، درب لسانه جيدا على نطق الألفاظ المعسولة فكان يختار ألفاظه تلك أختياراً موفقا يترك أجمل الأثر فى أذن كل من يستمع إليه !!

.. وكانت مرجريت - سيدته - لاتفتأ تثنى على أدبه وسعة علمه بل وجدت نفسها تستمتع بكل لحظة تقضيها مع ذلك الأسبانى الذى كان يقصد التقرب منها لغرض فى نفسه .. تماما كما توقع جرفاس ..المحب الصادق .

وفى أحد الأيام .. وكانت مرجريت جالسة فى أحد مقاعد حديقه قصرها الشاسعه والدون بدرو بجوارها .. قال هذا :

ـ سيدتى .. لقد حان للسجين أن ينطلق .. هلاتفضلت بتعيين الفدية المطلوبة لأطلاق سراحى وفك أسرى ؟.

فقالت مرجريت :

ـ أننى أتفهم ظروفك جيداً ، لذا فأننى أترك لك تحديد مقدار الفدية

فأبتسم دون بدرو ابسامة غامضة وجعل يفكر ملياً ثم قال أخيراً :

ـ ليكن ذلك .. ولكننى أرجو أن تساعدينى فى الحصول على الفدية المطلوبة ..

ـ ماذا تقصد !؟

ـ سأكتب الآن خطابا وعليك أنت أن تعملى على إيصاله ..

فقالت مرجريت مستغربه : على أنا ؟..

فراح يشرح لها ما أراده .. قال :

ـ أننى أريد رسولاً يحمل كتابى الى موطنى أسبانيا .. وليس لى من أعتمد عليه فى هذه المهمة غيرك !.

فقالت مرجريت مستنكره :

ـ هل تعتقد أن هناك بحار انجليزى يجرؤ على الأقتراب من الثغور الأسبانيه فى هذا الوقت العصيب ..

فقال الدون :

ـ أنا أعلم ذلك .. ولكن العلاقات طيبه بين انجلترا وفرنسا .. والرسول الذى ستختارينه سيقوم بتوصيل الرسالة الى شخص أعرفه فى ميناء (نانت) بفرنسا ، وعلى هذا الشخص أن يتم الباقى ..

فقالت مرجريت :

ـ آه أراك قد خططت لكل شئ .

فأجابها دون بدرو :

ـ وهل كنت تظنين منى أننى أرضى بالبقاء عبئا ثقيلا على كرمكم وفضلكم الى ما لانهايه ..

ثم ضحك ضحكة جذابة ..، وابتسمت له مرجريت فى رقة .

* * *

أرسلت مرجريت كتاباً تستدعى فيه السير جرفاس للحضور إلى قصرها، وحضر جرفاس مسرعا..إذ كان قد أنقطع عن زيارة مرجريت مدة طويلة ، فلما جائه كتابها أعتقد ان الفتاه قد فطنت لتأثير معاملتها الجافة له .. وانها أستدعته لتطيب خاطره وتصلح الأمور بينهما .

وكانت مرجريت تتوقع أن يعاتبها جرفاس وهو ما أعد له فعلا ولكن ما أن رأى مرجريت حتى نسى ـ فى الحال ـ كل ماكان قد أعده لها من العتاب واللوم .

قالت مرجريت تسأله :

ـ أين كنت كل تلك الأيام ؟.

فأجابها وهو مطرق الرأس : لقد كانت عندى مشاغل كثيرة ، كما أننى لم أفكر فى أنك قد تحتاجين إلى وجودى ..

فقالت : وهل لاتأتى إلينا إلا عندما نكون فى حاجة إليك ؟..

فقال : بل عندما أرى ترحيبا بى وكلا المعنيين واحد .

فزفرت زفرة ألم مصطنعه وقالت :

ـ ياله من تفسير قاس ، فأنت أذن لاتجد ترحيبا هنا الا عندما نكون فى حاجة اليك .. أهذا كلام يقال !!؟..

أرتبك جرفاس .. ثم قال بتهكم :

ـ لقد كان عندك صاحبك الأسبانى يشغل أوقات فراغك .

فقالت مرجريت :

ـ نعم .. فهو أنسان مؤدب ، بل هو رجل خبرة وتجارب وعرف العالم ، وزار كل قصور الملوك فى أوربا ، وهو يجيد الغناء و..

وقاطعها جرفاس الذى لم يعد يستطيع الصبر على سماع أكثر من هذا عن الأسبانى الفذ .. وقال :

ـ والى متى سيقيم هذا الأسبانى اللعين هنا ..؟

فقالت :ـ أخشى أن يطول به المقام ..

ـ تقولين (أخشى) بربك .. ما الذى أنتويته بشأنه .. ألم يصل والدك بعد الى قرار بخصوصه ؟!

ـ ليس هذا من شأن أبى ، فأنا آسرته ، ولى الحق فى فدية يدفعها ثمناً للسماح له بالعوده إلى موطنه ..

ـ آه .. وكيف سيحصل على هذه الفدية ؟

فقالت مرجريت وقد أقتربت من هدفها :

ـ الواقع انه كتب رساله الى تابع له فى (نانت) بفرنسا .. ومطلوب شخص يحمل هذه الرساله التى تنظم عملية دفع الفدية ، وترتيبات عودته الى بلاده .. ولكننى لا أجد مثل هذا الشخص و...

قاطعها جرفاس وقد رأى أن أبتعاد الدون سيخلى له الجو مع محبوبته ، فقال :

ـ هات الخطاب .. ودعى الباقى لى ، سأتدبر أمر وصول الرسالة إلى نانت ، سأرسل أحد الأشخاص بمعرفتى إلى " نانت "

بهذه الرسالة ..

وابتسمت مرجريت ابتسامة غامضة.. لم يدرك جرفاس معناها، لقد نجحت فى إثاره همة جرفاس.. وأوكلت اليه مهمة إرسال الخطاب الى (نانت) .. وهو ما كانت تخطط له حين ارسلت فى أستدعائه ..

وتم إرسال الخطاب مع الرسول وكان هذا يكفى لكى يقنع جرفاس بوجوب الصبر على الأسبانى حتى يرحل ، ولكن غرام الشباب لايعرف الصبر ، فلم يلبث جرفاس أن عاد الى ثورته النفسية الأولى حين رأى مرجريت منشغله أكثر الوقت بمطالب الدون بدرو وتوفير أسباب الراحة له .

كان جرفاس يشعر بأن مرجريت معرضة للخطر الحقيقى من فتنه هذا الرجل .. فخطر له أن يتحرش به ولكنه رأى أولاً أنه يحسن به أن يسبر غور الشيخ تريفانيان ، فأنتهز ذات مرة فرصة وجود مرجريت مع الأسبانى فى الحديقة ، ودخل على والدها الذى كان منكباً على مجلد ضخم للمؤرخ هيرودوت ..

قال جرفاس محيياً :

ـ مولاى !؟ لقد جئت الساعة لأتحدث إليك عن مرجريت ..

فرفع الشيخ بصره عن الكتاب مستاءً متذمرا .. الا أن جرفاس واصل كلامه قائلا :

ـ لقد أصبحت تقضى أكثر الوقت مع هذا الأسبانى ، وهو أمر لا يليق بسيدة فى مركزها .. أن هذا اللعين يقف فى طريقى وهو فى هذه اللحظة بالذات جالس فى الحديقة يعزف على قيتاره وينشد أناشيد الحب لمرجريت ..

وعندئذ .. بدأ الشيخ يدرك حرج الموقف .

فصاح قائلا : أيفعل هذا وأنت هنا لاتفعل شيئا .. أذهب فى الحال وأبعثها لى ، سأعرف كيف أنهى هذا الوضع الشائن وأضع حدا له ؟ وسوف تتزوج بك قبل مضى شهر ..

فذهب سير جرفاس راضياً قرير العين بينما عاد الشيخ الى كتابه.

كانت مرجريت جالسه على مقعدها بالحديقه ، ودون بدرو جالسا بجوارها وأصابعه تجرى على أوتار قيتارته بينما أرتفع صوته فى غناء عذب جميل.. حين جاء جرفاس وقال مخاطباً إياها :

ـ أن والدك يسأل عنك يامرجريت وهو يطلبك عنده فى الحال .

فقامت مرجريت متجهمة إلى غرفة أبيها ، بينما بقى جرفاس ودون بدرو وحدهما .

عاد دون بدرو للعزف على القيثارة وهو لايلقى بالاً لوجود جرفاس بجواره ، فلم يلبث هذا أن تهيج واندفعل ورأى فى ذلك إهانة بالغة له ونوعاً من السخرية والاستهزاء فهجم على الأسبانى وضرب الفيثارة بكفه ، فأطارها من يده ..

نظر الأسبانى اليه بدهشه ثم مالبث أن ابتسم ابتسامة خفيفة وقال بصوت ملئ بالسخرية :

ـ أراك لا تحب الموسيقى ياسير جرفاس !..

فقال جرفاس : ولا الموسيقيين !..

فأستطرد الأسبانى :

ـ هناك الكثيرين الذين لايحبون الموسيقى والموسيقيين مثلك ولكننى لا أفهم مطلقاً هذه الحركة التى قمت بها ..

ـ كنت أظن أن سببها واضح ..

فنهض دون بدرو ، وعلى وجهه سمات الحزن والأسف وقال :

ـ هل تعنى أنك أردت أن توجه لى إهانة ؟!

ـ نعم ..

ـ ولكننى لم أهينك من قبل .. ولا أتذكر أننى أسأت اليك ولو مرة !.

فصاح جرفاس قائلا : أنت نفسك إهانة !. ومجرد وجودك هنا إساءة هذا فضلاً عن كونك أسبانى ، وأنا أمقت الأسبان جميعا .

فابتسم دون بدرو ببردو .. وقال :

ـ الآن .. وقد فهمت حقيقة مشاعرك نحوى .. هلا قلت لى ياسيدى ماذا يمكن أن أفعله لأرضيك !؟.

ـ أن تموت .

فتحسس دون بدرو لحيته بأنامله ، وهو لايزال فى أتم الهدوء .. ثم قال :

ـ هل يرضيك إذن أن تحاول قتلى !؟.

فقال جرفاس : يسرنى هذا !

فأنحنى دون بدرو قائلا :

ـ إذا كان الأمر كذلك فلا يسعنى سوى تحقيق رغبتك ولهذا أرجوك أن تنتظرنى لحظة ريثما أحضر أسلحتى .

وبأحناءه من رأسه ، وابتسامة من فمه خرج مسرعاً تاركاً جرفاس وهو يسخط على نفسه لسلوكه الخشن الجاف إزاء شخص يبالغ فى أدبه ورقة سلوكه ..

وأراد جرفاس أن يهزأ بخصمه فقال :

ـ أرجو أن يكون لعبك بالسيف فى مثل براعتك بالكلام وطول اللسان فأجابه دون بدرو بكل لطف :

ـ لا تخف !

ـ أنا لا أخاف شيئا ! .

ـ لاضرورة لأن تخاف ، لأننى لن أمسك بسوء ..

.. فأشتد هياج جرفاس ، وأستطرد الأسبانى :

ـ يجب أن تفهم ياسيدى أننى لو قتلتك فمن المؤكد أن قومك سوف يشنقوننى .. أما لو قتلتنى فسوف لاتجد أنساناً يناقشك الحساب عن قتلى..، وأنا لا ألفت نظرك إلى هذه الفكرة لكى أتحاشى المبارزة فلك أن تطمئن أننى لن أصيبك بسوء .

فقال جرفاس غاضباً :

ـ أنت واثق فى نفسك أكثر من اللازم .

ـ نعم .. وإلا رفضت مبارزتك .

وكان هذا فوق أحتمال جرفاس .. فأسرع يخلع سترته ، ويقبض على سيفه وهو يقول لخصمه :

ـ هيا ..

وتلاقى الخصمان وجها لوجه .. وشرعا يتبارزان ..

كان جرفاس ثائرا غاضبا لذلك كانت مبارزته متفقه مع ثورته وحنقه وكم كانت دهشته حين رأى الطعنات القوية التى كان يوجهها إلى خصمه بكل قوة ذراعه ، ومتانة عضله ، لاتصيب هدفها ، بينما راح الأسبانى يتفاداها برشاقة وخفه وكأنها السحر بعينه ، فلم تلبث ذراع جرفاس أن كلت، وقواه أن خارت ، وعند ذلك بدأ الغضب يتملكه.. فأصبحت حركاته بالسيف خبطات عشوائية ، وكان فى وسع الدون بدرو أن يقتله بسهولة ولكنه لم يفعل .. بل قال بتهكم :

ـ ياللعجب .. أنك لاتزال بحاجة إلى دروس فى المبارزة ..

فأحتدم غيظ جرفاس وهجم عليه .. ولكن الدون بدرو كان سريعا كالبرق.. إذألقى بسيفه على الأرض .. ثم أمسك بمعصم يد جرفاس القابضه على السيف وأنتزعه منه ..

وهكذا وجد جرفاس نفسه بلاسيف .. وسيفه فى يد خصمه ، فثبت فى مكانه غاضبا هائجا ، بينما الأسبانى يبتسم بكل هدوء وينحنى له انحناءه ساخرة .

شعر جرفاس بالمهانة الشديدة ، وهيأت المصادفه إذلالا أضافيا ، إذ ألتفت ليجد مرجريت وقد وقفت عن قرب من حلبة المصارعة جاحظة العينين، شاحبه الوجه ..

ولايعرف جرفاس كيف أتت .. ولا كم لبثت، ولكنها بالتأكيد شهدت هزيمته المخجلة !!

قالت مرجريت وهى تنقل نظراتها من أحدهما الى الآخر :

ـ ما هذا !!؟

فأجاب الدون بدرو بكل هدوء :

ـ لاشئ .. مجرد تمرين بسيط بالسيف لتعليم السير جرفاس فن المبارزه . ثم ألتفت إلى جرفاس، وناوله سيفه قائلا بابتسامته المهذبه :

ـ أظن أن هذا يكفى اليوم .. وغدا سوف أبين لك طريقه أخرى ..

فقالت مرجريت موجهه كلامها للدون بدرو :

ـ أتركنا قليلا يادون بدرو ..

فأنحنى بأدب .. ثم أنصرف ..

ولم تكد مرجريت تخلو إلى جرفاس حتى صاحت به :

ـ جرفاس .. ما الذى جرى بينكما !؟

فلم يسعه سوى الأعتراف بما جرى ، ولبثت هى تنصت إليه صابره ، شاحبة راعشة الشفتين قليلا حتى إذا ما انتهى .. قالت بهدوء :

ـ لقد أكفيتنى مؤونة عصيان رغبات أبى ..

وأدرك جرفاس ماتقصده .. وأدرك أنها على حق الآن فى رفضها الزواج برجل مثله .. رجل ليست لديه القدرة على الدفاع عن نفسه .. رجل مهزوم .. خاسر ..

وعادت مرجريت تقول : أكنت تحب أن تموت قتيلا ..

فقال بحزن :أنت لاتحفلين بى .. فلماذا هذا الأهتمام بمصيرى !؟

فأجابته :ـ ومن الذى قال لك أننى لا أهتم بك !..

وكانت لتلك الكلمات تأثير السحر فى نفس جرفاس الموتورة .. فهتف بها قائلا :

ـ مرجريت .. أحقا ماأسمع !؟.. لقد فعلت كل هذا من أجلك .. فقد كنا سعيدين قبل مجئ هذا الأسبانى إلى هنا .. أنت تعلمين كم أحبك يامرجريت ..

.. ولكن مرجريت لم تعلق على كلامه الذى يفيض حباً وأخلاصا .. بل قالت له بنفس اللهجة التى يخاطب بها الكبير الصغير ..

ـ والأن .. عدنى بأنك لن تعود لمثل هذا الفعل بعد اليوم ..

ـ أعدك ..

ـ والأن .. هيا بنا ..

ثم أخذا طريقهما إلى داخل القصر .

* * *

ومرت على حادثة الأشتباك هذه ثلاثة أيام ..

حتى إذا كان اليوم الرابع .. والدون بدرو جالس مع مرجريت على مائدة الطعام ، إذ دخل الخادم يقول أن رجلاً أجنبيا يسأل عن الدون بدرو .. فأستأذن الأسبانى من مرجريت فى الخروج للقائه ، فأذنت له ..

وكان رسولا من (نانت) يحمل الفدية المطلوبة.. وكان وصولها بهذه السرعة دليلا على مركز الدون بدرو الخطير ومكانته العظيمة ..

لم يكد الرجل يرى الدون بدرو قادما نحوه حتى أنحنى ، وقال :

ـ فى خدمتك يامولاى .. أنا أنطون ويكلكرك من (نانت) .

فعبث الدون بدرو وتجهم وجهه وقال بكبرياء :

ـ كيف هذا !؟ لقد كنت أظن أن الدون دييجو هو الذى سوف يحضر بنفسه !

فأجاب الرسول قائلا :

ـ لقد حضر الدون دييجو يامولاى ، ولكنه رأى من الحكمة أن يبقى فى السفينه ولاينزل الى البر، والسفينه راسية الآن على مسافة ميلين فقط من الشاطئ وعليها الدون دييجو ..

فقال الدون بدرو : وأين الفدية !؟

فمد الرجل يده برزمة كان يضعها تحت أبطه وهو يقول :- هاهى يامولاى .

فتناولها الدون بدرو .. ومشى إلى النافذة ففض أختامها ، وبطرف سيفه أزاح اللفائف فظهر صندوق صغير مستطيل الشكل مصنوع من الأبنوس ، فرفع غطاؤه فإذا به يحوى عقدا من أندر اللآلئ وقد وضع فوق وسادة صغيرة من المخمل الأحمر .

تناول الدون بدرو العقد فى يده .. ثم قال للرسول :

- لقد أحسن الدون دييجو ..

فقال الرجل : ومتى سنرحل يامولاى ..

- غدا .. عند مغيب الشمس .

- كما تشاء يامولاى .. ولكن التأخير قد يكون خطيراً

- الحياة كلها أخطار ياصاحبى .. إلى الملتقى غدا عند المغارة الكبيره على الشاطئ ، والآن .. أذهب .

فأنحنى ويكلكرك وأنصرف .

* * *

كانت مرجريت جالسه وحدها قرب النافذة تطل على الحديقه ، فلما دخل الدون بدرو عليها ألتفتت برأسها اليه، وكانت يداه خلف ظهره !!

أقترب منها بينما ظلت هى مرسلة بصرها إلى الفضاء منتظرة أن يسترسل فى حديثه إذا ماشاء .. فما كان منه الا أن رفع يده مدليا العقد الثمين .. ثم تركه لينحدر فوق شعرها الذهبى ..

وشعرت مرجريت بهذه اللمسة الخفيفة، ثم أحست يدا باردة تحيط

عنقها بشئ .. فوثبت من مقعدها ملتهبه الخدين .. إذ ظنت أن هذه اللمسة من أصابعه ..

وما كادت تتحول اليه .. وتلمح العقد متدليا على بشرتها الناصعة حتى ضحكت وقالت : آه .. لقد خفت أن ..

ثم توقفت عن الكلام.. وتناولت اللآلئ فى يديها لتتأملها، ولم تلبث أن تبينت قيمتها الكبيرة .. وروعتها المتناهية فلهثت أنفاسها وقالت :

ـ ما هذا !؟ ..

فأجاب الدون بدرو ببساطة : الفدية التى أحضرتها من بلادنا ..

ـ ولكن .. ولكن هذا أفتداء غير معقول .. هذه ثروه عظيمه .. هذه فدية أمير ..

ـ وأنا تقريبا كذلك ..

ثم أستطرد قائلا : أن كلمة واحدة منك أثمن وأغلى من كل هذه اللآلئ الحقيرة التى يتألف منها هذا العقد ..

وكانت هذه نغمة جديدة .. جريئة لم يتجاسر من قبل على الكلام بها .. نغمه حب ، ولهجة عاشق !!

وازداد الدون بدرو أقتراباً من مرجريت .. ثم قال بصوت حزين :

ـ هاهى الفدية قد سلمت ، وهاهى ساعة الرحيل قد أقتربت ، لقد أصبحت الأن فى حل من ميثاقى ، وسأعود غداً إلى بلادى ..

فقالت مرجريت : أوه .. بهذه السرعة !!؟

.. سكت الدون بدرو لحظة .. ثم قال : مرجريت ..

وكانت هذه هى أول مرة يناديها فيها بأسمها .. واسترسل ..

ـ مرجريت .. هل أذهب كما جئت .. هل أذهب وحيدا !!..

وتظاهرت مرجريت بأنها لاتفهم شيئا .. وقالت :

ـ حتما ستجد فى السفينه أصدقاء لك ..

فأجاب متهكما: أصدقاء !! لست بحاجة إلى أصدقاء.. ولا إلى مال .. ولا إلى سلطان .. كل حاجتى هى إنسانة تشاركنى فى كل هذا .

وقبل أن تفتح فمها لتتكلم .. أستطرد قائلا :

ـ كيف تقضين بقيه عمرك فى هذه البلاد الهمجية !!؟ تعالى معى لأفتح أمامك أقطار الأرض جميعا .. تعالى يامرجريت ..

تراجعت مرجريت الى الوراء .. غاضبة مكفهره الوجه تلوم نفسها على السماح له بالكلام على مثل هذه الصورة .. ثم قالت :

ـ لن أتظاهر بأننى لا أفهم كلامك أو مقصدك يادون بدرو .. ولكنى أرفض عرضك هذا ..

ـ ولماذا !؟

ـ لأننى لا أحبك يادون بدرو ..

.. وكأنه تلقى ضربه سيف ، أو رشقه سهم مارق .. تراجع الدون بدرو .. ثم أندفع اليها متوسلاً :

ـ ولكن الحب سيأتى حتماً .. سأعرف كيف أوقظه، سأعرف كيف أجعلك تحبيننى لأن الحب يولد الحب .

ولكن مرجريت مدت يدها إليه وراحت تقول :

ـ لنكن صديقين يادون بدرو .. كما كنا دائما منذ اليوم الذى وطأت فيه قدميك أرض أنجلترا .

ثم مدت أصابعها تلمس درات العقد الثمين على نحرها ، وأضافت ـ وسأحتفظ بهذا العقد ، لا لقيمته .. بل لذكرى هذه الصداقة الطيبه

فلا تحاول أن تفسدها ..

فتنهد الدون بدرو وهو ينحنى فوق تلك اليد الممتده إليه ، فيقبلها خاشعا وقد أدرك أنه قد انهزم أمامها هزيمة ساحقة ..

* * *

وفى اليوم التالى ..

وهو اليوم الأخير للدون بدرو فى أنجلترا ..

كان الدون بدرو يبدو هادئاً .. لاتبدو عليه آثار ذلك الوجد والغرام اللذان ظهرا جليا فى حديثه مع مرجريت فى اليوم السابق !!..

بعكس الحال مع مرجريت نفسها التى ودت ألا يكون صدها له قد ضايقه.. فهى تميل اليه ، وطوال فترة إقامته فى قصرها كان مثالا للأدب والذوق ..

كانت ترقبه بطرف عينيها ولكنه كان كما هو دائما .. مبتسماً إبتسامته اللطيفة لبقاً فى كلماته .. أنيقاً فى كل حركاته وسكناته ..

وعرضت مرجريت العقد على أبيها وقالت له أن الدون بدرو قد دفع بذلك الفدية المطلوبة وأصبح يطالب بحق إطلاق سراحه ، وأنه مسافر فى مساء ذلك اليوم الى بلاده .. فلم يزد الشيخ على أن قال .. بلا أكتراث ..

ـ حسن .. هذا حسن للغاية .. لا بأس ..

وخطر لمرجريت أن ترسل فى استدعاء جرفاس ليودع الدون بدرو ولكنها تراجعت عن هذا الخاطر .. رحمة بمشاعر كلا من الشابين اللذان .. يمقتان بعضهما أشد المقت ..

.. وأستعد الدون بدرو للرحيل ..

وذهب الخادم يحضر له أسلحته ورداءه وقبعته .. وسارت مرجريت

معه الى الحديقة .. ثم وقفت ومدت يدها تودعه وقالت :

ـ الوداع يادون بدرو ..

.. فقال الدون بدرو وكل حزن الدنيا على وجهه :

ـ لى رجاء أخير يا مرجريت .. لقد شهد الشاطئ ، وبالتحديد عند الصخرة الكبيرة لقاؤنا الاول.. فدعينى أراك فيه لأخر مرة ..

ولم يكن بوسع مرجريت أن ترفض هذا الرجاء الأخير من محب خاسر فسارت معه حتى بلغا الموضع المقصود .. فقالت مرجريت :

ـ لقد كان هنا .. فقد كنت أنت واقفاً فوق الصخرة البيضاء حين وثب كلبى بروتس عليك ..

فقال الدون بدرو بأسى :

ـ نعم .. ويا ليته قتلنى .. ليته أنشب أنيابه فى عنقى فقبض روحى .

.. وأنتظرت مرجريت أن يودعها .. ولكنه قال :

ـ ألا تخطين خطوات قليلة أخرى !! حتى تكونى أخر من تقع عيناى عليه فى بلادكم ..

ومرة أخرى أستجابت مرجريت ، وسارا حتى وصلا إلى حافة الشاطئ حيث كان هناك زورقاً صغيرا يحمل جماعة من الناس تبدو أشباحهم فى الظلام ..

وما أن لمحهم دون بدرو حتى رفع صوته وتكلم بالأسبانيه فأسرع أثنان منهم اليه ..

ومدت مرجريت يدها مرة أخرى وقالت فى عزم :

ـ والأن .. وداعا .. أرجو لك رحلة سعيدة ..

وتناول الدون بدرو يدها فى قبضته وعاد يقول :

ـ مرجريت .. ألاتذهبين معى !!..

فقالت : أوه يادون بدرو .. هيا أذهب فإن رجالك ينتظرون ..

ـ لاشأن لهم .. لأنهم خدمى .. مرجريت ..

كان وجهه شاحباً .. وجسمه يرتجف ، فتولاها خوف غريب فى هذه اللحظة فراحت تنتزع يدها من قبضته وهى تقول :

ـ وداعاً .

ولكنه وثب بسرعة ، وأنقض عليها يطوقها بذراعيه ويدنيها من صدره وهو يقول لاهثاً :

ـ مرجريت .. أصفحى عنى ..

ـ دون بدرو !!

وجعلت تلتمس الفكاك منه ولكنه شدد قبضته عليها ولم تكن فى حياتها النقية الطاهرة قد تعرضت لمثل ما تتعرض له الأن .. فجعلت تصيح فيه :

ـ دون بدرو.. أن هذا عمل غير لائق .. أنه سفاله.. نذالة.. أتركنى لو كنت رجلا مهذباً .

فقال الدون بدرو وهو يضحك ضحكة غريبه :

رجل مهذب .. نحن الآن رجل وأمرأه .. وأنا أحبك .

أدركت مرجريت نيه الدون بدرو وقصده .. فصاحت مستنجدة وبمن كانت ستستنجد سوى بحبيبها !؟

ـ جرفاس .. جرفاس .

.. وأحست بقبضة الأسبانى وقد تراخت عنها، وقبل أن تحاول

التحرك شعرت برداء قد ألقى عليها من فوق رأسها فغمر جسمها كله ، ثم أحست بأذرع قويه تحملها وتجرى بها سريعا ..

وفى نفس اللحظة .. حضر جرفاس !!..

من جاء به الى هنا؟ وفى هذه اللحظة بالذات !!. قل أنها تصاريف القدر .. أو مصادفات الحياة التى لاتتكرر كثيرا ..

ولكن الزورق كان قد أبتعد صوب السفينة البعيدة .. وجرى جرفاس الى الماء .. وهو يصيح :

ـ دون بدرو .. أيها الكلب الأسبانى ..

ومضى القارب فى طريقه .. وظل جرفاس يخوض الماء فى أثره حتى بلغ الماء كتفيه وهو يصيح :

ـ عد أيها الوغد .. أيها الحيوان الحقير ..

.. ووقف الدون بدرو يسمع هذا الصوت الذى حملت الرياح نبراته الى مسامعه .. وهو يبتسم !!!

* * *

كان الشيخ تريفانيان منكبا على مكتبه ومجلداته يقرأ فى ضوء الشموع عندما ظهر أمامه ـ فجأه ـ شبح موحش يقطر الماء من ثوبه !!

وكان ذلك القادم عليه ـ بتلك الصوره الغريبه ـ هو سير جرفاس !!

نظر الشيخ الى جرفاس فى دهشة واستغراب ، ولكن جرفاس لم يتركه ليتكلم وانما بادره بصوت قاصف كالرعد :

ـ أنهض ياسيدى اللورد .. هيا أسرع ياسيدى ولاتضيع الوقت سدى ..

.. وراح ينتزع الكتب الملقاة أمام الشيخ ويكتسحها بيده أكتساحا والشيخ يرقبه فى صمت وذهول لايوصف !

وأخيرا .. نظر اليه قائلا : ماهذا !؟.. هل جننت !؟.

ـ أتسألنى هل جننت ؟ نعم .. هل تعرف أن أبنتك قد ذهبت !؟ لقد أختطفها ذلك الأسبانى الخائن ..

ثم أخذ يروى عليه تفاصيل عمليه الأختطاف !!

.. كان الشيخ جامداً .. يستمع الى رواية جرفاس فى صمت .. فلما انتهى من روايته ، أعتمد الشيخ بمرفقيه إلى المائده وتناول رأسه بين يديه وأخذ يئن ويتأوه وقد حطمه النبأ وذهب بأخر قوته ..

ـ وماذا تنوى أن تفعل !؟.. سأل الشيخ ..

فصاح جرفاس :

ـ سأذهب فى أثرها الى أسبانيا .

فقال الشيخ مبهوتاً :

ـ الى أسبانيا !؟ ولكن مهلا يابنى ، وانتظر ، ودع التفكير يسبق العمل ، فما تم شئ بلا فكر ، ولاتحقق أمر بلا روية وتبصر ، وحذار أن تفسد علينا كل شئ بالعجلة والتهور .. ثم مشى مبتعداً عن المائدة .. وأتجه الى النافذة وأخذ يطل ببصره على الحديقة الساكنة فى الظلام .. ثم تنهد .. وعاد يلتفت الى الشاب ، وقال ذاهلاً :

إلى أسبانيا.. أهذا ما قلت !؟. ولكن كلا ياولدى ، هذا مالا يفعله العاقل .. سنذهب أولاً إلى الملكة فلعلها لاتزال تذكرنى .. كما أنها إمرأه ، ولن تتأخر عن تقديم يد العون لإمرأه مثلها ..

.. فقال جرفاس :

ـ لن أنتظر حتى أقابل الملكة فى الصباح ..

.. وكان الشيخ مازال على سكونه وجموده ..

ثم التفت مرة أخرى الى جرفاس وقال :

ـ سأكتب رسالة للملكة .. خذها وأذهب اليها بها .. فلعلها لاتزال تذكر اسمى ثم سار الى مكتبه وجلس يكتب ...

وأخيرا أتم الكتاب ووضعه فى غلاف وختمه ثم دفع به إلى جرفاس وهو يقول :

ـ أذهب بهذا الخطاب الى الملكة فى لندن ..

تناول جرفاس رسالة الشيخ ثم خرج يطوى بجواده الأرض إلى قصرالملكة . ولم يأت مساء ذلك اليوم نفسه حتى كان قد بلغ القصر .

.. ولكن مقابلة الملكة لم تكن بالسهولة التى أعتقدها جرفاس ..، ولكنه أخيراً أستطاع إقناع سير فرنسيس الوزير بالبلاط أن يسمح له بمقابلتها .. وعندما دخل الى حضرتها .. تقدم من مقعدها الكبير ثم جثا أمامها ..

فالتفتت الملكة الى سير فرانسيس تسأله : ـ

ـ من هذا الشاب ؟.. ولماذا أحضرته الى هنا ؟.

فأنشا سير فرنسيس يذكر جلالتها بالشاب جرفاس ومافعله فى حرب الأرمادا حتى ظفر بالحظوة لديها فأنعمت عليه بلقب " سير " تقديراً وأعجاباً ..

تحولت الملكة الى جرفاس وقالت :

ـ ماذا تريد يا سير "جرفاس" ؟

ـ أننى أحمل رسالة إلى جلالتك يامولاتى .

ثم مد يده وهو مازال جاثياً ـ بالكتاب إليها .

تناولت الملكة الرسالة وأخذت تقلبها فى يدها تفحص أختامها .. ثم قطبت حاجبيها عابسة وهى تقول :

ـ ممن هذا الكتاب أيها السيد ..

فأجاب :

ـ أنه من سيدى اللورد روجر جارز تريفانيان يا صاحبة الجلالة .

فقالت الملكة مردده :

ـ روجر تريفانيان .. روجر تريفانيان ..

ثم أمسكت أنفاسها المتصاعدة ونظرت إلى جرفاس قائلة :

ـ وماهى علاقتك به يافتى .

ـ أنه صديقى يامولاتى .. وأنا صديقه وأحب أبنته ..

فقالت الملكة :

ـ آه .. أبنته ! أذن له بنت ، لقد أحسنت الأختيار يابنى فقد كان أباها وسيما جميلا فى شبابه .

ثم تنهدت وظلت ساهمة لحظة !!

روجر تريفانيان .. سنين طوال لم تره فيها ولم تسمع خبراً عنه .. لقد أثاراسمه فى ذاكرتهاأحداث الماضى البعيد .. وعاد بها إلى "توماس سيمور" الذى كانت تربطها به علاقة حب ملتهبه حتى أنه لقى حتفه نتيجه هذه العلاقه .. وكان روجر تريفانيان هو صديق توماس سيمور الحميم .. والمطلع الوحيد على أسرار علاقتهما ..

الأن .. وقد كبرت .. وأصبحت ملكة انجلترا .. فأنها لا تزال تذكر حبيبها القديم .. وتذكر أيضا صديقه الوفى تريفانيان الذى آثر الابتعاد عن دسائس البلاط ومؤامراته بعد إعدام سيمور ..

ثم أنثنت إلى رسالة تريفانيان تقرأها ، وبعد أن أنتهت منها ، تحولت الى جرفاس قائلة :

ـ لم يذكر لى روجر شيئا فى كتابه أكثر من أن طلب منى مساعدتك فى محنة أليمة عرضت لك فما هى تلك المحنة ؟

وبكل إيجاز وبلاغة ، وحرارة أخذ جرفاس يقص على الملكة الرواية كامله ابتداءا من قدوم دون بدرو حتى أختطافه لمرجريت ..

ولم يكد جرفاس ينتهى من قصته حتى صاحت الملكة فى غضب :

ـ يا الهى .. لقد بلغت الجرأه بهؤلاء الأسبان حداً متناهيا .. وينبغى أن نوقفهم عند هذا الحد .. سألقى عليهم درساً أليما ..

ثم تحولت الى جرفاس وقالت جلالتها :

ـ أخبرنى يافتى .. ماذا تطلب منى بالضبط ؟

قالت هذا فبدت أمام جرفاس كحيوان شرس آن له أن يفتك ويفترس ..

فقال جرفاس :

ـ لقد أعتزمت أن أسافر الى أسبانيا كى أتعقب الدون بدرو دى مندوسا .

فصاحت به الملكة :

ـ وحق الله أن هذه هى الجرأه بعينها .وماذا تطلب منى؟

ـ لقد كان أملى يامولاتى أن تتولى جلالتك حمايتى فى هذه الرحلة وضمان عودتى منها سالما .. ولا أقول ذلك خوفا على حياتى .. بل ..

فقاطعته قائله :

ـ ولكن كيف أحميك ؟. كيف أحميك عندما تكون فى أرض فيليب

ملك أسبانيا !!

ـ حسنا يامولاتى .. أسمحى لى إذن بالسفر وحدى ، سأنقذ مرجريت .. ودون ذلك أن أموت ..

ولكن الملكة صاحت فجأه فى وصيفتها وقالت :

ـ داكرز .. قربى هذا المقعد من المكتب لكى أكتب .. والله لأعلم ملك أسبانيا مدى طول ذراعى ..

ثم قامت جلالتها ومشت إلى المقعد وجلست وهى تقول لوزيرها :

ـ فرنسيس .. أن لدينا ثمان نبلاء أسبان سجناء فى برج لندن وهم من حصاد الأرمادا .. وأعتقد أن بينهم (الدون فالدز ..) أليس كذلك ؟

فقال الوزير :

ـ نعم يامولاتى ..

ـ حسنا .. أذكر لى أسماؤهم .

فأصفر وجه الوزير ورعشت لحيته الطويلة وقال متلعثما :

ـ هل تنوى مولاتى حقا أن ..

فقاطعته بقولها :

ـ ستعرف نيتى حالا أنت وذلك المغفل الآخر فيليب .. قلت لك ماهى أسماؤهم ..

وكان أنفعالها شديدا .. فلم يسع الوزير سوى أملاء الأسماء عليها وهى تكتب ، وبعد أن أتمت كتابها طلبت شمعا لختمه .. ثم قدمته إلى جرفاس قائله :

ـ ها هو سلاحك أيها الفتى .. سر إلى أسبانيا فأن هذا الكتاب هو

سيفك وأصطحب معك صديقك السير أوليفر فجثا جرفاس وتناول الكتاب .

ومدت الملكة يدها اليه فقبلها فى خشوع واحترام ، فمدت يدها الأخرى تربت على شعره الأشقر وهى تقول :

ـ أذهب ياذو القلب العاشق والعاطفة الطاهرة .. وانى لأدعو الله أن يرد عليك فتاتك وأن يعيدك إلى وطنك سالماً ..

.. وخرج جرفاس من حضرة الملكة ..

أما فرنسيس .. وزير البلاط فقد كان فى غيظ كظيم وهو يشعر أن الملكة ـ بتصرفها الغير مسئول أطلاقا ـ قد دفعت بالبلاد إلى حافة الجحيم المستعر .

* * *

سار الزورق بالدون بدرو وفريسته التى أختطفها من بلادها قاصداً السفينه التى لم تكن تبعد عن الشاطئ بأكثر من ميلين .. كان البحارة قد شدوا عصابة حول عينيها وأذنيها بناء على أمر الدون بدرو .. وبعد نصف ساعة .. رفعت تلك العصابة عن وجهها ، وفتحت مرجريت عينيها لتجد الدون بدرو أمامها .. وقال :

ـ أغفرى لى ياحبيبتى هذه الجرأه ..

كان صوت الدون بدرو مشحوناً بالأستعطاف والتضرع .. فأجابته مرجريت :

ـ سوف نتحدث فى هذا حين تعود بى الآن إلى الشاطئ ..

فأبتسم ابتسامته الخبيثة الماكرة .. والمتكبرة ، والتى كانت من قبل محل إعجابها ..

ـ هيهات أن يحدث هذا يامرجريت ..هيهات .. أنت معى إلى النهاية .

وأقترب القارب من السفينه حتى حاذاها من ناحية السلم .. فطلب منها الدون بدرو الصعود فرفضت وأخذت تقاوم وتهدد وتتوعد .. ولكن الدون بدرو حملها عنوة ، وصعد بها الدرجات القليلة إلى ظهر السفينة .

وجدت مرجريت نفسها فى وسط السفينه حيث كانت هناك عدد من المصابيح المضاءة .. وعند مدخل السفينه وقف القبطان يحمل مصباحاً فى يده وعلى قيد خطوات منه وقف رجلان .. أحدهما ضخم الجثه والأخر عملاق نحيل يرتدى مسوح قسيس وقد أحتجب وجهه فى ظل القلنسوة التى تغطى رأسه. مخفيا يديه فى ردائه الفضفاض .. وكان الرجل الأول هو الدون دبيجو الذى أعد السفينه لرحيل سيده الدون بدرو .. أما الرجل الأخر.. القسيس فقد كان من المتبع ألا تسافر أية سفينة فى خدمه أسبانيا الكاثوليكية دون أن يصحبها مرشد دينى وكان هذا هو سبب وجود القسيس على ظهر السفينه ، وقد قدم الدون دييجو القسيس الى دون بدرو قائلا :

ـ القس سالسيدو ..

.. فتبادل القس والدون بدرو مراسم الأحترام بأن أحنى كلامنهما رأسه للآخر وفيما كان القس يرفع قامته بعد هذه التحية .. إذ ظهر وجهه الذى كان مختفيا فى ظل القلنسوة .. فأستطاعت مرجريت أن تلمح فيه سحنه ناحله شاحبه تطل منها عينان سوداوان تبرقان بريقا مخيفا يرسل البرودة فى الأوصال ..

.. وقال القس محدثا الدون بدرو :

ـ من هذه المرأه التى أحضرتها معك ؟

فشعر الدون بدرو بأن القس فى غضب يكظمه فأحب أن يقابله بجواب عنيف ، ولكنه تمالك جأشه وأجاب بأدب :

ـ هذه السيدة هى التى ستصبح قريبا جدا زوجتى .. يسرنى أن أنتهز هذه الفرصة لإعلان هذا الخبر أمامكم حتى تخاطبوها ـ من الآن فصاعدا بلهجة الأحترام والأدب ..

ثم تركه منصرفاً وهو يلعن فى سره الدون دييجو على أصطحاب

قس كهذا من قسس الدومنيكان المشهورين بالوقاحه والخيلاء على الناس بسبب سلطتهم الدينية التى يتمتعون بها فى ديوان التفتيش .

ألقى الدون بدرو نظرة على أثاث القـمـرة الكبـيـره التى أمـر بتخصيصها لمرجريت .. فوجده مريحاً فاخراً خليقاً بالسيدة التى ستقيم فيها .. فأشار دون بدرو إلى مرجريت بالجلوس على أحد المقاعد ثم أنشأ يقول :

ـ مرجريت .. أن عذرى فيما فعلت هو حبك الذى ملك فؤادى فأنا رجل شريف برغم كل شئ .

ضحكت مرجريت ضحكة ساخرة .. فأضطرب وراح يردد كلمته قائلا :

ـ نعم .. أننى رجل شريف .. أقسم لك أننى لست بالرجل الفاسد ، ولا بالعابث كما لا أحب أن تعتقدى اننى " أختطفتك " لأن الأختطاف تعبير وقح قبيح ..

فقالت مرجريت : ـ

ولكنه التعبير المناسب لما فعلته .. بل للجريمة التى ستعاقب عليها إن أجلا أو عاجلا ..

بسط دون بدرو ذراعه فى حركة تأثر شديده وقال :

ـ لم يكن بوسعى غير الالتجاء إلى هذه الوسيلة لأفوز بك .. مرجريت أننى سأتزوجك .

فألقت مرجريت عليه نظرة قاسية حادة وقالت :

ـ لقد كنت أعتقد انك وغد ونذل ، وأحيانا كنت أعتقد انك مغفل كبير.. والآن وبحديثك عن الزواج .. فأننى أراك مزيجاً محزناً من كل هذا .

فخفض الدون من عينيه وزفر وقال : دعينا نأكل ..

والتفت الى خادمه الواقف على الباب وأمره بإعداد الطعام ..

* * *

وفى صباح اليوم التالى خرجت مرجريت الى سطح السفينه .. وبينما هى واقفه تستطلع ما حولها ، شعرت بشخص قريب منها فتطلعت ببصرها اليه فإذا هى إزاء القس لويس الذى رأته بالأمس ، وقد بدا على ضوء النهار أصغر سناً مما تصورته ، كما كان وبرغم نظراته الذئبيه يبدو وسيماً ملفتاً للأنظار ، وكان واقفا على بعد خطوات منها ممسكا بكتاب من كتب الدين وحبات المسبحة متدليات من كفه .

ولمح القس نظرات مرجريت إليه ، فأحنى رأسه قليلا لتحيتها وإن ظل وجهه ساكناً وكأنه قد من الخشب ..

وتقدم نحوها، وعيناه الواسعتان الرهيبتان مستقرتان على وجهها فلم تلبث أن شعرت بالأضطراب ، ولشد ما كانت دهشتها حين راح يحدثها بالانجليزيه قائلا :

ـ أرجو أن تكونى قد قضيت ليلا هادئا !؟

.. فأجابته مرجريت : نعم .. وأشكرك .

وفى تلك اللحظة وثب إلى خاطرها أنها ربما وجدت فى ذلك القسيس نعم العون فى محنتها .. فمركزه الدينى يجعله ذو سلطة ونفوذ كبيرين .. فقالت له وهى تقترب منه :

ـ يلوح لى أن الله قد أرسلك نصيرا لى ..

ظهرت على سحنته أمارات العطف والأشفاق وقال :

ـ أنا لست إلا خادماً ضعيفاً عاجزاً من خدام الله .. فما خطبك

أيتها الأخت فأخذت مرجريت تقص عليه بايجاز كيف أخذت عنوة من بلادها .

قال القس لويس بسكون : أعرف ذلك !

فصاحت به مرتاعة : أتقول انك تعرف ذلك ؟!

ـ نعم .. وأعلم أيضا أن الدون بدرو لا يقصد بك سوءاً ..

ـ وكيف ذلك ! أو ليس من الشر والإثم والمعصية حملى هكذا على غير رغبتى وإرادتى ..

ـ هو عمل خاطئ ولاشك .. وعلى ذلك فأنا أعدك بالمساعدة ..

ثم تقدم ورسم علامة الصليب فوق رأسها وغمغم بدعوات خافتة ، فتطلعت اليه مرجريت ببصرها وعيناها تختلجان وتبرقان ببريق شك غريب ! وأدرك هو معنى تلك النظرات المتشككة فى بركته ودعائه .. فغمر وجهه فى الحال ظل ريبة شديدة .. ساعتها فقط تبين أن الدون بدرو قد أرتكب معصية بالغة لاتقتصر على مجرد أختطاف الفتاه .. بل لأنه جاء معه بأمرأه زنديقة كافرة ..، وأمام هذا الأستكشاف المفاجئ ، أتروى القسيس مبهوتاً وتراجع ذاهلاً مرتاعاً، وأنطلق منصرفا عنها لايلوى على شئ ..

كانت نظرة الشك التى صدرت من مرجريت قد جاءت نتيجة الخلاف الدينى الكبير بين انجلترا وأسبانيا .. فلاعجب إذن أن يعتبر القس الأسبانى أن الأنجليزيه كافرة، ولاعجب أيضا أن تظن مرجريت أن دعوات ومباركتة القس لها قد لاتعنى شيئا !!

* * *

أصبح القس لويس يعتقد اعتقادا راسخاً أن مرجرت هذه ماهى إلاتابعة لإبليس ، وأستطاعت بمعاونة سيدها (ابليس) أن تفتن قلب

وعقل الدون بدرو دى مندوسا .

وفى الصباح .. جاء القس إلى الدون بدرو فحياه وباركه ثم شرع يحدثه عن أسبانيا ، وكيف أصبحت هى الحامية الوحيدة لدين الله ، وانها كانت دائما المسئولة عن محاربة الكفر والزندقة .. والدون بدرو يجاريه ويؤمن على كلامه .. وهو يشعر فى قرارة نفسه .. بأن القسيس يريد الإفصاح عن أمر يكتمه .. وأخيراً ، وبعد سيل من المواعظ والنصائح الدينية .. قال القسيس :

ـ ومع ذلك .. فأننى أعتقد أنك مشرف على حافه هاوية سحيقه !

فأندهش الدون بدرو وقال :

ـ أتقول أننى على حافه هاوية .. أنا .. ولماذا ياسيدى ؟

فصاح القس قائلا :

ـ انك لتوشك أن تفسد دينك النقى وإيمانك الصحيح بأقدامك على التزوج بأمرأة كافرة .

..ففهم الدون بدرو المراد ، وعرف كيف ينظر القسيس الى مسألة غرامه بمرجريت ، لذا فقد وقف مرتبكا مضطرباً .. ولكنه مالبث أن أستعاد ثقته بنفسه ، وأعتداده بقوته .. فقال للقسيس :

ـ سيدى .. أن زواجى من مرجريت سيتيح لى فرصة ردها الى الايمان الصحيح ، وإنقاذها من الريغ والكفر .

فقال القسيس ووجهه يطفر بالبشره والسرور :

ـ أهنئك ياسيدى على إيمانك القوى ، ومن جانبى فلن أتردد فى إقناع السيدة بالحسنى حتى ترتد عن كفرها وتعود إلى الأيمان الصحيح .

* * *

لمدة ثلاثه أيام متتاليه .. كان القسيس يلقى على مرجريت مواعظه وآراؤه الدينيه .. وكم كانت دهشته - رغم تحسبه لذلك - حين وجدها تحاوره وتناقشه وتجادله بمنطق قوى الحجة لدرجة أنها كادت تؤثر على معتقداته الشخصيه .. ولكن القس لويس كان متعصباً للغاية لدرجه انه أعتقد ان الشيطان - سيدها - يمدها بالحجج المعقولة ، والبراهين المقنعة ليغويه هو شخصيا .. وعجب لويس .. كيف يتأتى لفتاه فى مثل عمرها .. لم تلق تعليمه ، ولم تتفقه فى الدين كما فعل هو ، كيف يتأتى لها ذلك اللسان البليغ والأجوبة المسكته ..

ولكنه أبليس .. نعم أبليس الذى يتقمصها !!

أبليس الذى أوقع الدون بدرو فى غوايتها ويحاول إيقاعه هو أيضا .. فهاهو يشاهد جمالها ، وأنوثتها الصارخة فتثار غرائزه ويتمنى أن تصبح له .. تماما مثل أى رجل .. ولكن .. لابد وأن يقاوم .. ولابد أن ينقذ الدون من تلك المرأه " المتقمصة " .. ولابد أن تلقى "الساحرة " جزاء كفرها وزندقتها ..

هرع القس لويس الى الدون بدرو ، وقال مرتجفا :

- أيها الأخ .. خذ حذرك من الآن ..

فقال الدون بدرو مبهوتا : حذرى مم ياسيدى ؟

فراح القسيس يقول :

لقد خلق الله المرأة ليمتحن بها الرجل ، ويجب أن تعلم يامولاى أن تلك المرأه الأنجليزية كافرة لا أمل فى هدايتها على الأطلاق .. " انها متقمصة " .

فبهت الدون بدرو وقال مرددا :

- متقمصة !!؟.

ـ نعم .. لقد تقمص أبليس روحها وهى ساحرة متصلة بالعالم السفلى .

فصرخ الدون بدرو فى وجهه قائلا :

ـ صه أيها المجنون ، لقد عجزت عن نصحها وهدايتها وهذا هو ما جعلك ترميها بتلك الفرية اسمع ياسيدى .. لو عدت إلى وقاحتك هذه فلن أتردد فى إلقائك فى البحر .

ولم يكد القسيس يسمع ذلك حتى أنكمش وأنزوى .. ثم قال :

ـ لقد أردت تحذيرك فحسب ، وأنت تعلم مصير من يغضب الله ..

فضحك الدون بدرو ساخراً وقال :

ـ أنا لا أغضب الله ياهذا .. أنا الدون بدرو دى مندوسا أولونا كونت ماركوس وكلمتى هى العليا فى هذه السفينه فتذكر ذلك كله وإلا ..

.. فلبث القسيس ينظر إليه مليا بعينين متفحصتين ثم رفع يديه فأرخى قلنسوته فوق رأسه وأنصرف .

* * *

.. ألقت السفينه مراسيها فى خليج (سانتاندر) فأتجه الدون بدرو الى قمرة مرجريت ودخل بعد أن طرق الباب ، ليجد مرجريت جالسة على أحد المقاعد وقد أشتدبها القلق ..

قال الدون بدرو :

ـ لقد وصلنا ..

فأجبته مرجريت ببرود :

ـ تعنى أنك قد وصلت ، لأن هذا بالنسبة لى ليس وصولا بل هو مرحلة من مراحل سفرة شاقة مؤلمة أكرهتنى أنت عليها ..

فتظاهر بأنه لم يفهم غرضها تماما وأجاب بقوله :

ـ ولكن أمامنا رحلة أخرى حتى نصل الى قصرنا بأوفيدو ..

ولم تجب مرجريت .. وأحس الدون بدرو أن وجوده سيزيد من غضب مرجريت وثورتها .. فخرج ضارباً باب القمرة فى أثره بعنف شديد ..

تهالكت مرجريت على المقعد وهى ترتعش واجفة مضطربة .. وفى تلك اللحظة ، وفى ذلك الموقف المخيف ، لم يلبث أن مثل أمام خاطرها شبح جرفاس بقده المعتدل ، ومرحه الدائم ، وطهارة نفسه النقية ..

النموذج الأمثل للرجل المهذب ..

وتذكرت كيف أنها جرحت خاطره كى تعبث وتلهو مع هذا الاسبانى الوقح وأدبه المزيف ورقته المصطنعة، وكيف أن هذه الحماقه منها هى التى هيأت لهذا الرجل الفرصة للأيقاع بها على هذا النحو !!

لقد لعبت بالنار، وهاهى النار توشك أن تلتهمها التهاماً ، ووجدت نفسها فى تلك اللحظة تنادى جرفاس نداء خفيا .. فلا تجد الجواب !

.. أفاقت مرجريت من أحاديث عقلها حين تطرق الى سمعها صوت الدون بدرو وهو يتحدث مع ديكلكرك .. وكان الحديث بالفرنسية التى تعرفها ..

قال يسأل تابعه :

- أين القس لويس !؟

وأجاب ديكلكرك : لقد نزل القسيس الى البر يامولاى منذ ساعة .

سمعت مرجريت هذا وهى تمنى نفسها بأن يكون القس قد ذهب لتدبير أمر خلاصها كما طلبت منه .. ولكنها كانت مخطئه تماماً فى ذلك !!

.. ففى صباح اليوم التالى .. عاد القس لويس فى زورق يصحبه عددا من الرجال المتشحين بالسواد ، وقد تسلحوا بالسيوف ، كما حمل بعضهم الخناجر ..

ولمح بحارة السفينة الزورق القادم بمن فيه ، فأدركوا أن هؤلاء رجال ديوان التفتيش ، أو الكلاب الضارية كما كانوا يسمون فى ذلك الحين .. وكان مشهدهم وحده كافيا لقذف الرعب فى النفوس وسريان الهلع إلى الأفئدة ..

كانت مرجريت قد أسرعت خارجة من قمرتها بعد ماسمعت عن وصول القسيس .. وكلها أمل أن يكون القس قد جاء ليفى بوعده لها فى نجدتها ومساعدتها .. ولكن رجليها تسمرت بالأرض حين لمحت القس ـ وعلامات الشر باديه على وجه ـ يشير لرجاله إليها وهو يحدثهم بالأسبانية .. ورأت الدون بدرو يتقدم إلى القسيس قائلا :

ـ ماهذا ؟ .. وماذا تريدون من هذه السيدة ؟

فقال القسيس :

ـ تنح جانبا أيها الكونت ، ولاتحاول مقاومة ديوان التفتيش والا عرضت نفسك ، وتلك المرأه معك لنقمة الديوان وغضبه ، وأعلم أنه لاتهمة موجهة ضدك فى الوقت الحاضر، لأنك لست إلا ضحية سحر هذه المرأه وفتنتها ..

فقال الدون بدرو بشراسه :

ـ أترك هذه السفينة فى الحال أنت وهؤلاء الأوباش الأوغاد الذين جئت بهم .

فأجابه القسيس بكل هدوء .. وعلى سبيل النصيحة :

ـ أراك غاضبا ياسيدى ولكنى سأتغاضى عما قلته ، وأحذرك للمرة الأخيرة من توريط نفسك فى الدفاع عن هذه المرأه الكافرة الساحرة التى جئنا للقبض عليها ..

فصاح الدون بدرو وهو هائج : يادون دييجو .

فجاء الدون دييجو فى الحال نحوه وهو شاحب اللون ، فألقى الدون بدرو إليه بأوامره بإلقاء القسيس ورجاله فى البحر ..

.. فتردد الدون دييجو وكان رعبه شديدا من مولاه الكونت ، ولكن رعبه من سلطان الكنيسة كان أشد ، لأن هذا السلطان لايهتم بنبيل

أو شريف .. أو حتى ملك ..

ووقف البحارة مذعورين لايتقدم أحدهم لتنفيذ هذا الأمر .

.. تقدمت الكلاب الضارية الى مرجريت ، ولكن الدون بدرو أسرع اليها فجعلها خلف ظهره .. ثم شهر سيفه وصاح فيهم :

ـ الى الوراء .

.. ولكن القوم أنقضوا عليه .. ورغم انه قد نجح فى إصابة عدد منهم الا انهم تكالبوا فوقه .. وأنتزعوا سلاحه منه .. ثم قيدوه بالحبال ، واستداروا إلى مرجريت التى استسلمت لهم دون أية مقاومه .. بل على العكس .. كانت ساكنة الأوصال هادئة الأعصاب .. فهى تعلم أن أية مقاومة منها لن تجديها نفعا .. ولكنها قالت حين أصبحت فى مواجهة القس لويس :

ـ أهذه هى الحماية التى وعدتنى بها !؟ أنا التى آمنت بمكانتك الدينية ومركزك .. مامعنى هذا ياسيدى ؟

فقال القس لويس :

ـ ياأخت .. أن الشيطان الرجيم قد غواك ، فتعالى معى لأطهرك ، ياأخت لاتخافى ولاتحزنى ، فأننا لانبغى غير تنقية نفسك الضالة وروحك الخاطئه ..!!

واقتادها الرجال إلى الزورق فى سكون !!

* * *

نقل الدون بدرو.. ومرجريت معه إلى (طليطلة) وقد كان من المفروض أن يمثل المتهمان ، إذ أصبح الدون بدرو متهما هو الأخر، أمام محكمة التفتيش فى أوفيدو موطن الدون بدرو ومسقط رأسه، ولكن رأى رجال ديوان التفتيش كان هو محاكمته فى(طليطلة) لسببان

أولهما أن الدون بدرو كان من أعظم نبلاء (أوفيدو) وأكبر أشرافها سلطاناً .. وكان إتخاذ أيه اجراءات ضده فى قلب ولايته أمرا لاتؤمن عواقبه ..

والسبب الأخر.. هو أن أسقف طليطلة .. (الدون دى كيروجا) كان فى نفس الوقت خال الدون بدرو .. ومن الطبيعى أن الأسقف ذو السلطان الكبير فى ديوان التفتيش يحب أن يقرر بنفسه ما سيفعله بأبن أخته .. فأما أن يخلى سبيله أو يقدمه للمحاكمة .

وهكذا .. نقل السجينان الى طليطلة حيث وضعا منفردين فى سجن محكمة التفتيش وهو بناء مستطيل مكون من طابقين فى شارع ضيق، وقد بنى على الطراز العربى إذ كان العرب قد حكموا طليطلة هذه لمدة طويلة ..

ومالبثت مرجريت أن وجدت نفسها ملقاة فى حصن مظلم لايحوى غير فراش من القش ومنضده خشبيه وكرسيين ، فقضت ليلتها فى أرق وحزن أليم ..

وفى صباح اليوم التالى دخل عليها رجلان من حراس السجن فأقتاداها الى غرفة صغيرة فى الدور الأرضى للبناء .. حيث ستعقد (محكمة التفتيش) الرهيبة !!..

.. كانت مرجريت ـ حين دخلت الغرفة ـ رافعة الرأس ، متكبرة الى حد الخيلاء والصلف ، تمشى بخطوات ثابتة واثقة ، مقطبة الجبين فى استياء وأنفة ..

.. وتأملها القضاة فى صمت وهى تدخل إلى حرم المحكمة ! فى حين كان القس لويس جالسا فى أقصى المنضدة الطويلة التى جلس عليها الثلاثة الذين يؤلفون محكمة التفتيش الرهيبة ..

.. وقفت مرجريت أمام المنضدة .. فأشار إليها رئيس المحكمة

القسيس (جوان أرنزيكو) بالجلوس على أحد المقاعد القريبة .. ثم قال الرئيس بانجليزية متلعثمة :

ـ أسمك .. وسنك ..

فأجابت مرجريت :

ـ الليدى مرجريت تريفانيان ..، خمسة وعشرون عاما .

فعاد الرئيس يقول :

ـ المعلومات المقدمة إلينا تفيد بأنك تعتنقين المذهب البروتستانتى الخارج عن الدين .. فهل تعترفين بذلك ؟

.. ابتسمت مرجريت .. فبهت أعضاء المحكمة حيث أن تهمة كبيرة كهذه تجعل المرء يرتعد خوفا .. لا أن يبتسم !!

.. وأجابت مرجريت قائلة : سواء أعترفت أو لم أعترف ، فأن هذا الأمر ليس من شأنك ياسيدى !

ومرت لحظة قبل أن ينتبه الرئيس من ذهوله أثر أجابتها !!..ثم راح يخاطبها فى رفق:

ـ بل من شأننا ، لأننا نعمل على المحافظة على ديننا من الزيغ ..

فقالت :

ـ هذا يجوز فى أسبانيا .. ولكننى لم آت الى أسبانيا بأختيارى ، فإذا كنت هنا الآن فما ذلك إلانتيجة أعتداء صارخ أصابنى من سيد من سادات أسبانيا الشرفاء ، فكل ما يخصنى من القوانين الأسبانيه هو إصلاح ما وقع لى ، ورد الظلم عنى وتمكينى من العوده لبلادى ، ولست أعتبر نفسى إلامجنياً عليها ومدعية تطلب العدالة ..

.. ترجم الرئيس كلماتها إلى زميليه عضوى المحكمة فبدت علامات الدهشة عليهما ، وساد السكون لحظة ، فقال القسيس لويس :

ـ ليت شعرى هل يحتاج الأمر الى شئ أكثر من هذا التصريح لثبوت التهمة عليها .. ألا ترون كيف تتكلم وتتناقش ببراعة شيطانية كأنها محام خبير ..

فأشار الرئيس اليه بالتزام الصمت قائلا : ـ

ـ أنت هنا يالويس بصفتك شاهد فقط ، فلست محامياً للمتهمة أو مدعيا عليها ..

ثم أستدار الرئيس إلى مرجريت قائلا :

ـ سيدتى .. أن اجراءات القانون العادية لامحل لها هنا ولا أعتبار ، فسلطة هذه المحكمة المقدسة فوق كل سلطة وأعتبار لأن أختصاصها هو النظر فى الخطايا التى يقترفها الأنسان فى حق الرب .. وأقول لك هذا أيتها الأخت حتى تقطعى كل رجاء فى محاولة الأحتماء بأى شئ قد لاتكون له صلة بقضيتك ..

ولكن مرجريت وقد واتتها الشجاعة من مصدر خفى أجابت :

ـ مهما تقول ياسيدى .. فأن ما حدث لى قد حدث قبل موضوع التهمة التى تواجهونى بها .. أنا مذنبة هنا لأننى بروتستانتية فى أسبانيا .. أما كونى انجليزية أدين بالمذهب البروتستانتى فهذا أمر يخصنى وحدى .. وما عليكم سوى إعادتى إلى بلادى حتى لا أدنس تربة بلادكم الطاهره ..

فعبس الرئيس وهز رأسه قليلاً ثم قال :

ـ أراك تتهكمين أيتها الأخت !!؟.

فقالت :انكم أيها السادة ـ تضيعون وقتكم وتسيئون أستخدام سلطتكم.. لأننى لست من رعايا ملك أسبانيا ، ولست فى حدود أملاكه بأختيارى ، وليس لأنجلترا سفير فى الوقت الحاضر بأسبانيا .. ولكن

سفير فرنسا قد ينوب عنه فى قضيتى وأنا أحب أن الجأ اليه وأرجو حمايته .. ولا أظنكم تنكرون على هذا الحق ؟

فأجاب الرئيس بقوله :

ـ أسألى يا أخت حماية الرب .. فأنها الحماية الوحيدة التى تعنى بك ..

ثم أستطرد بعد أن تداول مع زميليه بسرعة :

ـ حسنا أيتها الأخت .. أننا فى حاجة الى إعتراف منك بأنك تعتنقين المذهب البروتستانتى .. فهذا يغنى عن كل هذا الجدال الذى يدور الأن ..، أما الحجة التى تتذرعين بها وهى أنك قد أحضرت هنا على غير إرادتك فالجواب عليها هو أنك هنا نتيجة ما أنت متهمة به .

فصاحت مرجريت : ماذا تعنى !؟..

فقال الرئيس : أنت متهمة بأستخدام أفانين السحر فى إغواء الدون بدرو دى منديسا حتى خرج عن دينه .. برغم أنه كان مؤمناً صادقاً .. وعلى ذلك فأن إدعاؤك بأختطاف الدون بدرو لك أدعاء باطل لا أساس له .. وليس لك الحق فى الالتجاء لسفير فرنسا أو أى شخص أخر ..

فقالت مرجريت : دعنى أسألك ياسيدى .. من هو صاحب هذه التهمة الموجهة ضدى ؟ هل هو الدون بدرو ؟..

فقال الرئيس : لا.. ليس الدون بدرو هو الذى ادعى عليك هذه الدعوى بل أن هذه التهمة تستند إلى شهاده رجل خبير صادق .. أن الشاهد أو المبلغ هو القسيس لويس سالسيدو ..

.. دارت مرجريت برأسها الجميل نحو القس .. ثم التفتت إلى أعضاء المحكمة تقول :

ـ لقد سبق وأن لجأت الى هذا القسيس (المحترم) أطلب حمايته ولكننى أعتقد الأن اننى كنت ساذجه للغاية حين أعتقدت أن الذئب سيساعد يوما الحمل الصغير ..

فقال الرئيس : أيتها الأخت .. أننا فى أنتظار اعترافك .. فدعينا نحصل عليه حتى ننقذ روحك من نار جهنم الأبدية .. وانبهك إلى أن عند ديوان التفتيش من الوسائل ما يجعل أشد الناس إصرارا على الكتمان يعترف بالحقيقه ..

.. سمعت مرجريت هذه الكلمات فشعرت بقشعريرة ، وسرت فى أوصالها رجفة رعب شديد ..

ثم رأت الرئيس يرفع يده بإشارة فض المحاكمة ، فأحست يدا تمس كتفها وإذا هى يد أحد الحراس فأدركت أن الجلسة قد انتهت ، فنهضت متثاقلة وهى تشعر بالخوف أخيرا وقد أستولى عليها وحطم قواها ، فتركت نفسها تقاد بين حراسها الى السجن الموحش ..

* * *

وعقدت الجلسة الثانية لمحكمة التفتيش بعد يومين حيث دارت محاورة جديدة بين رئيسها والمتهمة مرجريت ، مرجريت بأسلوبها الساحر الآخاذ وحججها القوية المقنعة ، ورئيس المحكمة بتعصبه الشديد وإيمانه القوى برسالته التى خصها به الرب .. ألا وهى الدفاع عن دينه ضد الزنادقة الكفرة ..

وأخيراً انتهى قرار المحكمة الى أن المتهمة مذنبة .. وجزاؤها هو إعدامها حرقاً حتى تتطهر روحها وتقابل ربها بلا وزر أو جريمة .. وقد تقرر أن تعد المحرقة يوم الخميس السادس والعشرين من أكتوبر .. وكان وقت صدور الحكم هو التاسع عشر منه على أن ينفذ العقاب فى "طليطلة"..!

أما الدون بدرو فقد مثل أيضا أمام محكمة التفتيش حيث أخذ يدافع بشدة عن مرجريت فلما رأى إصرار القضاة على اتهامها بتهمة السحر والزندقة أخذ يكيل الشتائم للقضاة .. فيصفهم بالبلاهة ، وانهم كالحمير فى الجهل والبغال فى العناد !!

وكان من الطبيعى أن تحاول المحكمة تبرئة الدون بدرو بسبب قرابته للكاردينال كيروجا أسقف طليطلة ولن يكون هذا الا بإدانه مرجريت التى استخدمت السحر ضده ولكن الدون بدرو.. المحب الصادق "فوت" على المحكمة هذه الفرصة .. فجعل يأتى بالحجج والبراهين التى تثبت براءة مرجريت ، ومسئوليته وحده عن إختطافها الى أسبانيا بسبب حبه لها وغرامه بها.. ولكن المحكمة لم تأخذ بهذه الحجج ، وأرسلت خطابا الى الكردينال كيروجا تنبئه فيها بموعد إعداد المحرقة .. كما أقترحت أن يوقع بالدون بدرو عقابا مناسبا يكفى للتكفير عن أخطاؤه ..

* * *

وصل السير جرفاس كروسبى الى أسبانيا بصحبة صديق له هو السير أوليفر تريسيليان وهو صديق قديم له خاض معه أشرس المعارك وأخطر الأهوال حتى أنعمت عليه الملكة هو الآخر برتبة سير فى نفس اليوم الذى أنعمت فيه على جرفاس بنفس الرتبة .

وصلت السفينه أولا الى خليج (سانتاندر) بعد رحلة مضنية أستغرقت حوالى الأسبوعين منذ الحصول على إذن الملكة .. وكان وصول سفينه جرفاس بعد سته أيام من وصول سفينة الدون بدرو ومرجريت الى (سانتاندر) ..

وكان جرفاس ينوى السفر الى (مدريد) مباشرة حيث يقابل الملك ويقدم له خطاب الملكة وذلك بدلا من محاولة إقتفاء أثر مرجريت

وإضاعة الوقت فى البحث عنها، بقى أوليفر تريسيليان بالسفينة فى خليج (سانتاندر) بناء على أقتراح جرفاس بينما سافر هو إلى مدريد فوصلها بعد ستة أيام ، ولكنه حين وصل إليها علم أن الملك ليس مقيماً فيهاً ، وأنما ذهب للأقامة فى (الأسكوريال) وهو قصر منيف قائم فوق جبل شامخ ..

وصل جرفاس الى الأسكوريال وطلب مقابلة الملك فأقتاده الحاجب إلى غرفة صغيرة حيث نزع أسلحته قبل المثول فى الحضرة الملكية .

ثم أدخله الحاجب إلى حجرة بسيطة الأثاث وقد وضعت فى وسطها منضده مربعة فوقها كومة من الأوراق ودواة وأقلام .

وفى مقعد خشبى بسيط جلس أعظم ملوك عصره وزمانه ، واضعا مرفقه الأيمن على حافه المنضدة .

وجد جرفاس نفسه أمام رجل صغير الجسم ، هزيل ، مغضن الوجه كثير التجاعيد ، ذا جبين ناتئ ، وعينين صفراوين زرقاوين أو تكادان تكونان عديمتى اللون ، وقد قام من تحتهما أنف بارز كأنف النسر ، وكان فمه منفراً لأن فكه الأسفل منحرف إلى الأمام بشكل قبيح ، ذا شفتين صفراوين باهتتين تفغران بأستمرار فتكشفان عن فم لا أسنان فيه .. وقد تراخت خصلات من الشعر من ذقنه المنتوف فى موضع اللحية منه ، وله شاربان رفيعان مضطربان وشعر ناحل رمادى وخطه المشيب ..

وقد جلس مادا ساقه اليسرى التى قرح النقرس فيها فوق كرسى صغير متشحا بالسواد ، لاحليه على ثوبه سوى شعار الأسرة الملكية وهو (الفروة الذهبيه) حول عنقه ..

.. كان الملك لايعرف غير لغته ، اللغه الأسبانيه ، وكان جرفاس يعرف من هذه اللغة ما يكفى للأغراض الأعتيادية ولكنه لم يستطع أن

يفهم من كلام الملك لفظة واحدة ، وهنا قام (الأب ألن) ذو الأصل الأنجليزى بعملية الترجمه ، إذ كان واقفا خلف مقعد الملك بأعتباره واحد من أخلص مستشاريه وأقربهم الى قلبه ..

قال الأب ألن مخاطبا جرفاس :

ـ ان جلالة الملك يعرف انك رسول إليه من ملكة انجلترا وانك تحمل رسالة إلى جلالته .

.. فأخرج السير جرفاس الرسالة من صدره وتقدم ليعرضها فصاح به الأب ألن:ـ أركع ياسيدى .

فأمتثل جرفاس للأمر طائعاً ، فركع على ركبتيه ومد يده الى الملك فيليب بالرسالة فتناولها الملك منه بيد ضعيفة.. ثم فض أختامها ونشر الكتاب بين يديه وشرع يقرأها.. إذ كانت مكتوبة باللغة اللاتينية التى يعرفها الملك .. وبعد أن قرأ الرسالة ، لاحظ جرفاس تجهم وجهه ، واذ به يصيح وهو (يكرمش) الرسالة فى يده :

لعنة الله على تلك الكافرة الوقحة ..

.. ثم تمالك نفسه بعد لحظات طويلة وأنثى يقول :

ـ ولكن هل يمكن أن أكون مخطئا ؟..

وعاد ينشر الورقة وهو يقول :

ـ أقرأها على مسامعى يا ألن .. فلربما لم أفهم فحواها تماما .

فتناول الأب ألن الرسالة وشرع يقرأها، وكان هذا هو أول علم سير جرفاس بلهجة الخطاب الذى تلقاه من الملكة، وأسلوبه وكلماته ..

.. كان الخطاب رهيبا فى إيجازه ، عنيفا فى ألفاظه.. وفيه تذكر الملكة الملك أن لديها فى سجن برج لندن أشراف أسبان سجناء تحت يدها.. منذره بأنه إذا لم تعد اللادى مرجريت الى بلادها سالمة،

وكذلك السير جرفاس ورفقاؤه فسوف تبعث اليه برؤوس الأشراف الأسبان ، غير مبالية بتقاليد الحرب وشعائر الأمم ..

صاح الملك مره أخرى :

ـ هذه وقاحه لا معنى لها ، وتهديد فارغ لا قيمة له .

فأجاب جرفاس بجرأه قائلا :

ـ ولكن رؤوس الأشراف سوف تشهد بجدية هذا التهديد ..

.. فلم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى بهت الملك ، وجميع من فى الغرفة من خدم وحراس ..

ثم قال الملك :

ـ ومن الذى أذن لك فى الكلام .. ثم أن هذا الخطاب يقول أن لك رفقاء .. فأين هم أيها الأنجليزى ..

فقال جرفاس : فى سانتاندر ينتظرون رجوعى الى السفينة التى أقلتنى الى هنا .

قال الملك : وإذا لم ترجع ..؟

أجاب جرفاس : إذا لم أكن على ظهر المركب فى اليوم الثالث عشر من نوفمبر فسوف يقلعون بها الى انجلترا ليبلغوا جلالة الملكة انك تفضل أن تتسلم رؤوس رجالك على تنفيذ العدالة التى تقتضيها الفضيلة فى ديارك .

فقال الملك : وماهو اسم السفينة التى تنتظرك فى سانتاندر .؟

فأجاب جرفاس على الفور بتهكم واضح :

ـ تسمى وردة العالم ويتولى قيادتها سير أوليفر تريسيليان وهو رجل شجاع مغوار، يعرف أفانين القتال فى البحار، والسفينة تحمل

عشرين مدفعا قويا ..

.. رفع الملك يده المرتعشه وصاح بحراسه :

ـ خذوه وقيدوه .. فأننى سأطلبه مرة أخرى ..

اجتذبه الضابط إلى الوراء ليذهب به .. فقال جرفاس متوعداً :

ـ تذكر رؤوس الأسرى .. وأعلم أنك أنت الذى رضيت لهم الهلاك.

.. فأخرج من الحجرة عنوة ليتلقاه الجنود ويقتادوه إلى السجن .

* * *

كان الملك مصمما على تنفيذ حكم محكمة التفتيش .. فأرسل الى الكردينال كيروجا بطليطلة يستدعيه ليعرف منه سير التحقيق .. ومجريات الأمور وكان الكردينال قد استلم كتاب محكمة التفتيش الذى يخطره فيه بأن مرجريت سوف تعدم حرقا كما أن الدون بدرو ابن أخته يجب أن يعاقب عقابا مناسبا حتى يكفر عن ذنوبه وآثامه ..

وكان من الطبيعى أن يبحث الكردينال عن وسيلة ينقذ بها ابن أخته الدون بدرو من العقاب .

.. فلما مثل الكردينال أمام الملك .. أخطره هذا بأنه لن يستسلم لتهديد ملكة انجلترا .. وأنه مصمم على أن ينفذ العقاب الذى أتفق عليه أعضاء محكمة التفتيش .

.. فخرج الكاردينال من حضره الملك مهموماً حزيناً مشغول الفكر بذلك المصير الذى ينتظر ابن أخته .. والذى سيلوث سمعة الأسره العريقه ، واسمها الشريف ..

.. نام الملك فى ذلك اليوم .. ولكنه كان مضطرباً قلقا فى نومه لاتفارقه أشباح رؤوس سجناء الملكة أشراف أسبانيا .. فما كان منه عندما اسيقظ من نومه المضطرب إلا أن صاح بخادمه .

ـ أدع لى القس دييجو فى الحال ليطرد عنى هذه الأشباح .

.. فجاء القس دييجو الذى كان الكاردينال كيروجا قد اتفق معه على أمرما ..

.. قدم القس دييجو الى الملك وهو ساكن الأوصال ، فدخل الى مخدعه وأدنى مقعدا من فراشه فجلس ، وبعد أن تبادل الحديث مع الملك فى شأن صحته طلب من جلالته أن يعترف لكى يريح نفسه من أى عبء ثقيل .

فأخذ الملك يعترف .. ويفضى للكاهن بما يجيش فى صدره من أنفعالات وآلام ..

فقال الكاهن : لقد وضح لى كل شئ يابنى .. فهناك أثمين عظيمين يعتملان فى أعماق نفسك وهما سبب همك ومتاعبك .. أول هذه الأثام انك تفرط فى الطعام برغم نصائح الاطباء لجلالتك ..

فقال الملك :نعم .. نعم .. هذا صحيح .. وماهو ثانى هذه الأثام ؟

فقال الكاهن : الذى بدأ فى تنفيذ الخطة التى اتفق عليها مع الكردينال ..

ـ وثانى هذه الأثام هو إحجامك عن أنقاذ الأشراف السجناء فى برج لندن تحت رحمة ملكة انجلترا .

فقال الملك وهو يئن ويتأوه :

ـ نعم .. لقد صدقت .. ولكن ماذا أفعل أن سلطة ديوان التفتيش سلطة مقدسه .. لاسلطان لى عليها ..

فابتسم الكاهن وقال :

ـ نعم .. ولكن الأمور تختلف أمام مصلحة أسبانيا .. كن صادقا أمام نفسك وربك أيها الملك فيليب .. أن كبرياؤك لايعنى شيئا أمام

رؤوس ابناء أسبانيا المعرضة للقطع .. وهذه الرؤوس سوف تلعنك وتؤرق منامك الى أبد الأبدين .. ولن ترتاح يوما من عذاب النفس ، وعذاب الضمير فصاح الملك وهو يتلوى ويتململ فى فراشه .

ـ كفى .. كفى .. سأنفذ ما تطلبه .

* * *

استدعى الملك جرفاس من سجنه بعد أن قضى فيه ثلاثه أيام .. حيث سلمه سكرتير الملك رسالة ملكية تقضى بإطلاق سراح مرجريت وتيسير عودتها الى بلادها بصحبة السير جرفاس ورفقاؤه على ظهر السفينه (ورده العالم) .

.. قال السكرتير وهو يناول السير جرفاس رسالة الملك :

ـ أن مرجريت سجينة الآن فى محبس ديوان التفتيش بطليطلة .. فأسرع بتسليم هذا الكتاب إلى الدون جاسباردى كيروجا رئيس ديوان التفتيش فى هذه المدينة .

.. فتناول جرفاس الرسالة من يد السكرتير بيد مرتعشة .. وهو يخشى أن لايستطيع إنقاذ محبوبته فى اللحظة المناسبة ، فيصل بعد أن يكون الحكم قد نفذ .. وعندئذ يخسر كل شئ .

ركب جرفاس الجواد الذى أعد له.. وأنطلق به صوب طليطلة.. حتى وصل إلى مشارفها صباح يوم الخميس الذى سيشهد احتفالات الإعدام !!

.. أطلق جرفاس لجواده العنان ، والتعب يكاد يفتك به .. وبجواده أيضا .. فلما وصل الى أبواب طليطلة رأى زحاما شديدا عندها ، وقد اشتد الهرج والمرج بسبب حجز الحراس للجماهير عن الدخول ..

ولكن جرفاس لم يتردد فى إختراق الصفوف ، وراح يعلن الحراس

أنه رسول من قبل الملك .. فنظر هؤلاء اليه شذرا .. فأخرج الكتاب الذى يحمله، وأبرزه لهم .. فتراجع كبيرهم محييا بأدب ولكنه مانع فى دخول الجواد كما تقضى التعليمات .

.. ترجل جرفاس عن جواده .. وسأل الحارس عن أقرب طريق إلى قصر الكاردينال .. فأشار الرجل الى الكاتدرائية قائلاً له :

ـ إذا وصلت اليها فاسأل هناك .

.. ودخل جرفاس المدينة ، فلم يكد يسير قليلا حتى وجد نفسه وسط موجة من الناس تدفعه فى تيارها على غير ارادته ..

ومازال الموج الأسبانى يدفعه حتى أتى به أخيرا إلى ساحة واسعة .. تنتصب المشنقه فى وسطها !!

.. ثم سمع جرفاس صوت أجراس تدق .. ثم علت صيحات الجمهور على أثر مشاهدتهم لطلائع موكب رهيب ..

كان على رأس هذا الموكب جنود التفتيش وهم جيش من الشباب فى ثياب الجنائز وقد ساروا صامتين لايلتفتون يمينا أو يسارا نحو المشنقه.. حتى وقفوا عندها صفوفاً متراصة.. يليهم جماعة من المنشدين وهم يقرأون تراتيلهم الدينية .. ثم جاء بعد ذلك جماعات من أشراف المملكة على ظهور الخيل وهم فى أعجب الأزياء ..

.. ثم أرتفعت الصيحات واللعنات من حناجر الجماهير ودوت الشتائم وألفاظ السخط والسباب بسبب اقتراب مقدمة المحكوم عليهم والمذنبين .. وقد أحاط بهم الجنود المسلحين

كان المحكوم عليهم حوالى الخمسين فردا .. حاسرو الرؤوس ، حفاة الأقدام ، عراة تقريبا إلا من خرقه من قماش أصفر خشن كالخيش وقد حمل كل منهم فى يده شمعة غير مضاءة لكى تضاء عند

الهيكل حين ينهى تطهيره واستكمال توبته والغفران له ..

وكان من بينهم الشيوخ والعجائز والفتيه الأشداء والفتيات النائحات وهم جميعا مطرقوا الرؤوس أذلهم ذلك العرض المهين على الأبصار ، وراح جرفاس يتفحص تلك الوجوه بحثا عن مرجريت ، ولكنه لم يعثر عليها .. فسأل أحد الموجودين :

ـ هل هؤلاء هم كل المحكوم عليهم ؟

فأجاب الرجل :لا .. أن هذا هو عرض لبعض المحكوم عليهم فقط ، وغدا سيتم تنفيذ الحكم على الجميع ..

حمد جرفاس الله على أن مرجريت مازالت سالمة .. فأسرع يسأل عن مقر الكاردينال كيروجا.. الذى كان قد رجع الى قصره مرتاح البال بعد ما نجح فى إقناع المحكمة بأن يكون عقاب الدون بدرو خفيفا.. ألا وهو تغريمه ألف جنيه ، والسير فى موكب المحكوم عليهم حافيا عاريا والحبل فى عنقه واستمرار ذلك لمدة شهر يوميا، وهو عقاب بسيط بالنسبة للأحكام الهائلة التى تصدر عن ديوان التفتيش .. والتى تكون غالباً الموت حرقاً ..

.. وما كاد الكاردينال يستقر فى قصره حتى جاء أحد الحراس قائلا :

ـ هناك رجل بالخارج يطلب مقابلتك ياسيدى ويقول أنه يحمل رسالة من جلالة الملك إليك ..

.. فأذن الكردينال بدخول الرجل الذى لم يكن سوى السير جرفاس .. الذى دخل على الكاردينال وهو لايزال أشعث أغبر من جراء هذا السفر الطويل ، وقد بدا عليه التعب وبلغ منه الإعياء كل مبلغ ، فأنحنى عند دخوله وقدم الكتاب فتناوله الكردينال .. وقرأه بسرعه .. ثم بانت على وجهه علامات السرور الشديد وهو يقول :

ـ حمدا لله ..

ثم استدار الى سكرتيره قائلا :

ـ سلم السجينه الى هذا الرجل فى الحال ..

ثم سأل جرفاس :

ـ أنت انجليزى على ما أعتقد .

ـ نعم .. أنا السير جرفاس كروسبى من رعايا جلالة ملكة انجلترا .

.. ولم تمض ساعة حتى جاء رجلان من رجال التفتيش يقتادان مرجريت التى كانت فى دهشة من أمرها ..

وجدت نفسها فى غرفة صغيره ، لاتدرى شيئا، وفى الحال أقبل عليها رجل لم تكد تلمحه حتى أنقلب المستحيل ممكنا، والخيال حقيقه، والأمل واقعا ، والحلم يقظه !..

ـ مرجريت !!

صاح جرفاس ....

ولم تصدق مرجريت أذنيها، فأندفعت إليه تقول بنحيب مسموع :

ـ جرفاس .. ماذا تفعل هنا !؟.

فقال جرفاس : لقد جئت من أجلك ..

فقالت ساهمه : من أجلى لتصحبنى إلى موطنى ؟

ـ نعم .. سنذهب إلى سانتاندر فى الحال حيث ينتظرنا تريسيليان بسفينته ..

.. ولكن .. حواسها كانت مضعضعة، ولبها كان شاردا، كما كان هو مترنحا من فرط الإعياء .. حتى كاد أن يسقط .. لولا صوتها العذب الحنون وهى تهتف به :

ـ جرفاس .. جرفاس .. يالك من فتى شهم نبيل ..

.. فتماسك .. وأرتدت اليه قواه الضائعة وقال مغمغماً :

ـ لقد كنت واثقا من أنك ستعرفين حبى يوما من الأيام ..

ـ لقد أحببتك دائما ياجرفاس .. دائما وأن كنت لم أصرح إليك بهذا من قبل ..

• • •

تمت بحمد الله